

الباب الثاني

الجماد

oboi.kandi.com

الجهاد اصطلاح إسلامي معناه الشرعي : القتال في سبيل الله . ولا يُفهم للجهاد غير هذا المعنى منذ فرض القتال بعد هجرة رسول الله ﷺ ، من مكة إلى المدينة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولكن قبل الهجرة كان الجهاد يعني : تحمّل الأذى، والصبر على الشدّة ، والدعوة، والتنظيم ، وذلك لأن المسلمين كانوا أقليةً في مكة، ولا يمكنهم غير ذلك . ولهذا بقي للجهاد معنى مجازي ، وهو الصبر ، وتحمّل الأذى . يقول رسول الله ﷺ : (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار)^(١) . وعن عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : أجاهد ، قال : (ألك أبوان ؟) قال : نعم ، قال : (ففيهما فجاهد)^(٢) . وفي روايةٍ لمسلم : (ارجع إلى والديك فأحسن صحبتها) .

والمعنى المجازي مأخوذ من المعنى اللغوي وهو بذل الجهد ومغالبة لطرفٍ آخر . ومن هذا كان الجهد المبذول من قبل الساعي على الأرملة والمسكين ، والساعي على صحبة الأبوين جهاداً .

غير أن المرجفين يأخذون المعنى المجازي، ويتعدون عن المعنى الشرعي رغم أنهم يتحدثون عن الشرع - حسب دعواهم - فيستشهدون بالآيات والأحاديث التي تدعو إلى بذل الجهد في الدعوة، وإبلاغ آيات الله، والصبر عند الشدّة، ويتعدون عن ذكر بذل النفس والقتال في سبيل

(١) متفق عليه (البخاري ٥٣٥٣ ، مسلم ٢٩٨٢) واللفظ للبخاري .

(٢) متفق عليه (البخاري ٩٧ / ٦ ، ٩٨ ، مسلم ٢٥٤٩) .

لله. وذلك لبقى المسلمون ضعفاء تتقاذفهم أمواج المهيمين على العالم، وأعدائهم، وتعصف بهم رياح المتنفذين، وإذا حدث ذلك ارتفعت مكانة المرجفين لما بذلوه من جهدٍ في سبيل إبعاد فكرة الجهاد الشرعي عن الساحة الإسلامية بما دونوا من مغالطاتٍ، وبما شوّهوا من أحداث التاريخ. إن ما يُسجّل هؤلاء لم يُرد به وجه الله، بل يراد به المصلحة والهوى.

الفصل الأول:

الجهاد في بدء الدعوة

بُعِثَ رسول الله ﷺ في مكة ، وبدأ بالدعوة كما أُمر ، فبدأ بأهل بيته ، فأسلمت خديجة ، رضي الله عنها ، كما أسلم عليّ ، وزيد ، رضي الله عنهما ، ثم أخذ بدعوة معارفه وأقرانه ، فأسلم أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فجعل يدعو إلى الله ، فأسلم بدعوته عدد ، منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ابن عبيدالله ، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وقدامة بن مظعون ، وعبدالله بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد ، وعمير بن أبي وقاص ، وعبدالله بن مسعود و ... ثم دخل في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدِّث به .

ثم إن الله عزّ وجلّ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يُبادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه . وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين . قال الله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾^(١) . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وأنذر عشيرتَكِ الأقرين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

(١) سورة الحجر : الآية ٩٤ .

فإن عصوك فقل إنى بريء مما تعملون ﴿١﴾.

ووقف سادة قريش في وجه دعوة رسول الله ﷺ خوفاً من ذهاب تسلطهم، وضياع شهواتهم، وفقدان سيادتهم، وتمسكاً بعاداتهم الجاهلية واستكباراً في الأرض فكذبوا رسول الله ﷺ بما جاء، واتهموه بالسحر، والمس، ووثبت كل قبيلة على من أسلم من أبناءها، يُعذّبونه، ويفتنونه عن دينه. كما اتجهوا إلى العبيد والموالي الذين أسلموا يُذيقونهم مرّ العذاب. فنال بلال، وعمار، وصهيب الكثير من الأذى، ولم تنج النساء من العذاب، وقد استشهدت سُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ تحت العذاب، وصبر المسلمون على كل ما أصابهم، وكان صبرهم جهاداً.

لقد أطلقت قريش على رسول الله ﷺ منذ بداية أمر الدعوة لقب «صابيء»، وكذا نعتت كل من اتبعه، وأسلم، كما كانت قريش تلقبه أحياناً بالكاهن، وأخرى بالساحر، وأحياناً بالمجنون إذ حسب أفرادها أنه قد أصابه شيء من المس، وظنت أنه يريد الشهرة، أو يبغى الزعامة، أو يطلب الشرف والسيادة، أو يعمل للملك ثم لم تلبث أن تبين لها أنه لا يُفكر بشيء من هذا، ومع ذلك استمرت في الدعاية ضده وضد من تبعه من الناس. وكم يشقّ على الإنسان أن يسمع مثل هذا الكلام على إخوانه، وعلى من يؤمن أنه رسول من عند الله بعثه لهداية البشر، ومع ذلك فقد صبر المسلمون الأوائل على هذه الدعاية، وكان صبرهم جهاداً.

لما رأى سادة قريش أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤-٢١٦.

الحبشة، وأصابوا بها أمناً، وأن النجاشي قد منع من هاجر إليه منهم، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل، عندها اجتمع رجال قريش، وتداولوا فيما بينهم على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب الذين يمنعون رسول الله منهم، على أن لا ينكحوا إليهم، ولا يُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يتاعوا منهم، ثم كتبوا ذلك في صحيفة، وتعاهدوا، وتوثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً على أنفسهم، فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم، وبنو المطلب إلى أبي طالب في شعبه، واجتمعوا إليه عدا أبي لهب بن عبد المطلب حيث خرج إلى قريش، فأقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثاً، ولم يستطيعوا الخروج من الشعب إلا في الأشهر الحرم بسبب الحراسة عليهم، حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سرّاً، مُستخفياً به من أراد صلتهم من قريش، يردّ عنهم غائلة الموت، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفّت أثداء النساء المرضعات من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذبلت الأبدان، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملون فيرى فوق هذه البطون الخاوية صدوراً عامرة ممتلئة بالثقة تُشكل مجتمعاً متكافلاً. وصبر المسلمون حتى استيقظ ضمير بعض رجالات قريش فمزقوا تلك الصحيفة الجائرة. صبر المسلمون على ما أصابهم من جوع، وظماً وضيق، وكان صبرهم جهاداً.

وحُرم المسلمون المحصورون في شعب أبي طالب من الزواج مدة حصارهم، فأوضاعهم المادية لا تُساعدهم، وأموالهم أصبحت عُرضةً للضياع، وصحتهم عرضةً للتلف، ومنظر الفرد قد مال إلى الذبول، والنضارة قد ذوت، أذهبها الجوع، وأسرعت بها المحنة والبلاء، بل إن كل

ما يعتزّ به الفرد قد سار في طريق البوار ، فطوى الشباب من فتیانٍ وفتياتٍ ما في قلوبهم من عواطف النفس وفطرة الإنسان. وهذا أيضاً شأن الشبان الذين سجنهم ذوهم، ومنعوا عنهم كل شيءٍ، فأوضاعهم لا تختلف عن أوضاع إخوانهم الذين حوصروا في الشَّعب. وحين كان أهل الشَّعب ينزلون في الأشهر الحرم إلى مكة ويرى شبابهم صخبها ، فيذكرون حياتهم الماضية في ترفها بينما هم الآن بثيابهم البالية، وأجسامهم المقوسة قد أضناها الجوع والألم فيعافون نعيم شباب مكة أو الذي يتصوِّرون أنه نعيم حسب المفهوم الجاهلي، وينظرون إلى المستقبل فإذا هذا النعيم الجاهلي ينقلب في أعينهم إلى جحيم يتصوِّرونه، ويتملأه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين، فيخلد أهل هذا الجحيم الجاهلي في النار ، بينما يكونون هم في روضةٍ يُجبرون، وفي الجنة خالدون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فيرون روضة الإيوان في ذلك الشَّعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة التي لا يسمع فيها إلا بكاء الرضع الجياع، وصياح الأطفال مع بعض التآوهات يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد تنطلق من أفواه المسلمين. وقد صبر المسلمون على ما كانوا يشعرون من ظلمٍ وحربٍ نفسيةٍ، وكان صبرهم جهاداً.

وغدت قريش على من أسلم من رجالها، واتَّبع محمداً رسول الله ﷺ فنالت منه ، إذ وثبت كل قبيلةٍ على من كان منها من المسلمين ، فكانوا يجسسونهم ويعدُّونهم بالضرب ، والجوع ، والعطش برمضاء مكة إذا اشتدَّ الحرّ . وكان العذاب أشدَّ وأقسى على المستضعفين من العبيد والموالي . فكان أمية بن خلف يُخرج بلائاً إذا حميت الظهرية فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على ظهره، ثم يقول له :

لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعد اللات والعزى ، فيقول بلال ، وهو في ذلك البلاء : أحد .. أحد ، وبقي على هذه الحال حتى اشتراه وأعتقه أبو بكر ، رضي الله عنه . وكذلك كان فعل بني مخزوم بآل ياسر ، ويمرّ بهم رسول الله ﷺ وهو لا يملك لهم إلا دمة تغرورق في عينه ، وحسرة تخفق في كبده ، فيقول لهم ، وهو حزين : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(١) . وقُتلت سُميَّة ، وصبر زوجها ياسر ، وابنها عمار ، وصبر معهم المسلمون . وكان أبو جهل عمرو بن هشام إذا سمع برجل أسلم ذهب إليه ، فإن كان له شرف ومنعة أنبه وأخزاه ، وهدده وإن كان ضعيفاً ضربه وآذاه ، وأغرى به . ولم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من المسلمين بل نال الجميع ما نالهم من العذاب ، حتى رسول الله ﷺ ، فإضافة إلى الإهانة التي أصابته منهم من تكذيب ، وسخرية ، وهزء ، يقال : إنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من المشركين إلا كذّبه وآذاه لا حرّ ولا عبد ، إضافة إلى هذا فقد همّوا بقتله عدّة مرات ، ولكن الله حفظه . وألقوا الشوك في طريقه ، والتراب على رأسه ، وفتات العظام ، وسلا البعير على ظهره فلا يستطيع الارتفاع من السجود حتى تأتي ابنته فاطمة ، وترفع عنه سلا البعير ، وضربه عدد من أفراد قريش ، فلم يُنقذه من أيديهم إلا أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ... ولم يكن باستطاعة المسلمين الردّ على المشركين إلا بتلاوة آيات من كتاب الله تنال من المشركين وتتوعددهم بالنار تارة بصفاتهم وأخرى بالتلميح إذ تشير الآيات الكريمة إلى حادثة مُعيّنة فيُعرف أشخاصها .

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٣/٣٨٨-٣٨٩ ، والطبراني في الأوسط ، والمجمع ٢٩٣/٩٢٠ وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وقد صبر المسلمون على كل ما نالهم من الأذى البدني ، وكان صبرهم جهاداً.

كان المسلمون في مكة في بداية الدعوة يُشكّلون أقليةً ، والأقلية جهادها الصبر والتنظيم ، وقد صبرت ، وكانت الآيات من كلام الله تنزّل على رسوله تدعوه إلى الصبر ، وتحثّه عليه ، وتبيّن له أن هذا شأن الأنبياء والرسل وأصحاب الدعوات وأتباعهم ﴿ فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾^(١) . و ﴿ ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾^(٢) و ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾^(٣) و ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ﴾^(٤) . ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾^(٥) . ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾^(٦) . ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾^(٧) . وعن خبّاب بن الأرتّ قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بُردة له في ظلّ الكعبة ، قلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال : (كان الرجل فيمن قبلكم يُخفر له في الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنّن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون)^(٨) .

(١) سورة المزمل الآية ١٠ . (٢) سورة المدثر الآية ٦-٧ . (٣) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .
(٤) سورة الأنعام الآية ٣٤ . (٥) سورة النحل الآية ٩٦ . (٦) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .
(٧) سورة إبراهيم الآية ١٢ (٨) رواه البخاري .

هذا الصبر ، أما التنظيم فقد كان المسلمون كتلةً واحدةً، لها رأس واحد هو رسول الله ﷺ ، تعيش مفاصلةً مجتمعها مفاصلةً شعوريةً، يجيا أفرادها بعضهم مع بعضٍ ، ويُساعد بعضهم بعضاً ، فهذا يرسل سراً إلى أخيه ما يحتاج إليه، وهذا يشتري أخاه من الرقيق ويعتقه، ويلتقون سراً بعيدين عن أعين قريشٍ، يقرؤون ما نزل من وحي ، ويوجههم رسول الله ﷺ كما يلتقي الأفراد المسلمون في بعض الأسر كي تأخذ النساء دورها ، كلقاء آل عدي (سعيد بن زيد ، وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وعبدالله النحام) ويوجههم خباب بن الأرت . وبقي ذلك ثلاث سنواتٍ ، ثم أظهر رسول الله ﷺ الدعوة ، ولكن بقيت سرية لقاءات الأسر ، وذلك مدة العهد المكّي، ولم يكن أحدهم ليتصرف تصرفاً فردياً، كأن يقوم بردّ فعل ضدّ أحد الطغاة فيقتله، وكان هذا أمراً ميسوراً وسهلاً، غير أن ذلك قد يؤدّي بضرب الدعوة ضربةً قاصمةً ، والقضاء عليها، فأتباعها لا يزالون أقليةً، وهذا الانضباط التام دليل التنظيم الدقيق. كما كانت تكفي إشارة من رسول الله ﷺ إلى أحد أصحابه ليقوم بقتل أكبر رؤوس الطغيان في قريشٍ ، ولكن لم يكن هذا ليحدث لأنه ليس من أسلوب الدعوة ولا من منهجها مادام أتباعها أقليةً.

فجهاد الأقليات وبداية الدعوة إنما هو الصبر على الأذى ، وبيان الحق بالقلم واللسان، والتمثّل بأخلاق الإسلام ، وعدم القيام بردود الأفعال ، والتنظيم الدقيق كي يكون الأمر منضبطاً ، والتصرف صحيحاً.

وحتى يتحقّق الانضباط التام ، ونضمن عدم القيام بردود الأفعال لا بدّ من مجاهدة النفس التي تتمثّل في تعلم الحق ، والعمل بما تعلّمت ، وأن تدعو إليه، وأن تتحمّل الأذى في سبيل ما تدعو إليه ، ثم عدم اتباع

الشیطان فیما یوسوس إلی صاحب النفس ، ویزین له فی القیام برودود
الأفعال وذلك لأن الشیطان یعمل علی أن تنزل النکبات بالدعوة وأن تحلّ
المصائب بأهلها. كما أن الشیطان یعمل علی دفع الإنسان للسریر فی درب
الغواية کي یصبح موضع نقد لمخالفة فعله إلی ما یدعو إلیه.

فجهاد النفس أمر واجب لدى المسلم سواء أکان یعیش ضمن
أقلیات أم فی مجتمع مسلم .

الفصل الثاني:

جهاد الدولة المسلمة

رأى رسول الله ﷺ أن الدعوة مهددة مادام أتباعها لا يزالون يعيشون أقلية وسط مجتمع كافر، لذا لا بد من العمل على تأسيس قوة تحمي الدعوة، وتعمل على نشرها. وأن مكة قد تعنت سادتها، وتمادوا في غيهم، وزادوا في طغيانهم، وغالوا في تمسكهم بجاهليتهم استكباراً واندفاعاً وراء شهواتهم، وحرصاً على مصالحهم، وخشية على مكانتهم - حسب تصوّرهم - وقد ختمت الغواية والكبرياء على سمعهم وأبصارهم غشاوةً فلا يسمعون إلا من خلال ما يوسوس لهم الشيطان، ولا يرون إلا من خلال ما تهوى الأنفس لذا فكر رسول الله ﷺ، بالانتقال إلى الحبشة، وأشار إلى أصحابه بالهجرة إليها فهاجروا، غير أنهم قد وجدوا أن ظروف الحبشة لم تكن مواتية لتكون تلك المنطقة قاعدةً لانطلاق الدعوة، فالأحباش على خلاف مع النجاشي، وقد خرجوا عليه، ولكن انتصر عليهم، والأساقفة على تعصب شديد، والمهاجرون قلة لا تُقيم مجتمعاً متكاملًا، واللغة تُشكل عائقاً، لذا فقد عاد أكثرهم إلى مكة، مع أنهم قد وجدوا الأمن والدعم من النجاشي، وبقيت مجموعة مع جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، برعاية النجاشي «أصحمة» الذي أسلم، ثم ارتحلت هذه الجماعة إلى دار الهجرة في المدينة في السنة السابعة، فوصلت

إليها والمسلمون في خير يفتحونها.

ولما كانت الحبشة لم تناسب لتكون قاعدةً لانطلاق الدعوة لذا فكّر رسول الله ﷺ بالطائف، وسار إليها ، غير أنه وجد فيها ما وجد في مكة فرجع إلى بلده حزيناَ أسفاً ، ولم يستطع دخولها حتى أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

وأراد رسول الله ﷺ أن يستفيد من موسم الحج فيعرض نفسه على القبائل التي تقصد مكة لتشهد الموسم، أو لتحضر أسواق عكاظ ، وذي مجنة ، فأخذ يعرض نفسه ، ويدعو هذه القبائل القادمة ، ولكن قريشاً لم تكن غافلةً عن هذا فكان عمه أبو لهب يسير وراءه، ويردّ أقواله ، ومن القبائل من كان يردّ رداً قبيحاً كبني حنيفة، ومنهم من يردّ رداً ليناً كبني عامر بن صعصعة.

وشاءت إرادة الله أن يلتقي رسوله ﷺ في أحد المواسم ، وهو موسم العام الحادي عشر من البعثة مع جماعةٍ من أهل يثرب ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعضٍ: يا قوم ، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدّكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك ، وواعدوا رسول الله ﷺ العام المقبل في الموسم .

بيعة العقبة الأولى : استدار العام، وجاء الموسم، وأقبل الناس إلى

الحج ، وكان بين حجاج يثرب أربعة عشر رجلاً ، اثنا عشر من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وقد التقوا حسب الموعد مع رسول الله ﷺ ، عند العقبة ، وأسلموا ، وبايعوا رسول الله ﷺ . وعرفت هذه البيعة ببيعة النساء ، إذ لم يكن القتال قد فرض ، ولم يكن المجتمع الإسلامي قد وُجد . ولهذا التسمية « بيعة النساء » معنى دقيق ، وهو أن الجهاد الأساسي هو القتال . وأن الدعوة بالبيان بالقلم واللسان ، والصبر على الأذى جهاد لاشك غير أنه دون الأول ، وإن كان كلاهما قائماً مادام الإسلام موجوداً ، غير أن الدعوة ، والصبر ، والسلوك مرتبط بالأقليات ، كما أنه مرتبط مع الجهاد القتالي بالمجتمع الإسلامي .

وأرسل رسول الله ﷺ مع مسلمي يثرب مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، وقد عُرف هناك باسم « المقرئ » .

بيعة العقبة الثانية : رجع مصعب بن عمير إلى مكة قبل الموسم ، وجاء الموسم ، وخرج حجاج يثرب مسلمين ومشركين ، وفي مكة واعد مسلمو يثرب رسول الله ﷺ ، العقبة من أوسط أيام التشريق ليلاً بعد الثلث الأول منه ، وتم اللقاء ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً ، اثنين وستين من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومع الرجال امرأتان . ولم يكن مع رسول الله ﷺ إلا عمه العباس ، وكان لا يزال على دين قومه ظاهراً جاء يستوثق لابن أخيه ، فقال العباس : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج

به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده .

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : (أشترط لربي أن تعبدوه وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، ونفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم) . فتقدم البراء ابن معرور فأخذه بيده ، ثم قال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ، لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فحنن والله أبناء الحروب ، وأهل السلاح ورثناها كابراً عن كابر .. فاعترض القول أبو الهيثم ابن التيهان ، والبراء يُكلم رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها : - يعني يهود - فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : (بل الدم الدم ، والهدم الهدم ^(١)) ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم ، وأسالم من سالمتم) . وكانت البيعة ، وكانت بيعة الحرب ، حرب كل من يقف في وجه صاحب الدعوة ، رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، وهذا هو الجهاد .

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه في مكة بالانتقال إلى يثرب ، والالتحاق بإخوانهم المسلمين هناك ، وفراراً بدينهم ، فأخذوا بالانتقال والهجرة ، ثم هاجر رسول الله ﷺ واجتمع المسلمون بعضهم مع بعض ، وتشكل المجتمع الإسلامي .

(١) عبارة تقولها العرب عند الحلف والجوار : أي دمي دمكم ، وهدمي هدمكم ، فما هدمتم من الدماء هدمته أنا .

المجتمع الإسلامي : اجتمع المسلمون في يثرب التي أصبحت تحمل اسم المدينة « مدينة رسول الله ﷺ » والتفوا حول رسولهم الكريم، وأصبحوا القوة الأساسية في المدينة، تشكلت دار الإسلام، وهي التي تُطبّق شريعة الله، وإن لم يكن سكانها جميعاً من المسلمين، وبالفعل فقد كان يسكن المدينة بعض القبائل اليهودية، وهم ثلاث قبائل : بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة. كما أن بعض سكان المدينة من العرب قد بقوا على شركهم، لم يُسلموا بعد حتى تُوجت قوة المسلمين بالنصر المؤزر يوم بدر فأظهروا الإسلام، فكانوا منافقين فالمجتمع كان في المدينة منقسماً، فاليهود يدسّون الدسائس، والمنافقون يتحرّكون سراً مع كل ناعقٍ، والمشركون يتربّصون الدوائر. وإن كان يحلو لبعضهم أن يُؤكّد تماسك ذلك المجتمع تأييداً لإمكانية معايشة اليهود والحياة معهم بسلام، في هذا الوقت الذي يدعى فيه للصالح مع اليهود والاستسلام لهم، والحياة معهم بسلام في المنطقة بعد اغتصاب منطقة فلسطين من بلاد الشام وتشريد أهلها، وارتكاب الجرائم المستمرة، والعمل على التسلط على المنطقة، والسيطرة على أهلها اقتصادياً، وسياسياً، وعسكرياً. وقول هؤلاء، ومغالطاتهم، وافتراء الكذب، ومخالفة عقيدتهم إرضاءً لسادتهم، وابتغاء العزة عندهم ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾^(١). يقول أحدهم « غير أن ظروفًا جديدةً نشأت مع استقراره ﷺ في المدينة، اقتضت قيام المسلمين بواجباتٍ إضافيةٍ في هذا المجال. ويمكن تلخيص هذه الظروف في الأمرين التاليين:

(١) سورة النساء : الآيتان ١٣٨ - ١٣٩ .

أولهما : نشأة أول مجتمع إسلامي متماسك، ضمن نظام دولة وافية الشروط والأركان . فقد تألف من المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومن الأنصار الذين استقبلوهم فيها ، ومن اليهود الذين قرروا أن يعيشوا المسلمين في أمنٍ وسلامٍ ، مجتمع متماسك يضبطه دستور، ونظام دولة ، ويرعاه مسؤول عن حماية هذا المجتمع ونظامه .

أما المجتمع فيتمثل في ذلك الجمع من الناس : المهاجرين والأنصار واليهود الذين اجتمعوا وقرروا التعايش في سلام ، في المدينة ^(١) .
فأي تماسك هذا؟ وأي تعايش هذا ؟ إنه لم يقل هذا أحد من الناس منذ عهد رسول الله ﷺ إلى اليوم . غير أن ابتغاء العزة من غير الله يختم على السمع وعلى البصر غشاوة تجعل صاحبها يغالط على الناس ، ويغالط نفسه .

كيف يمكن لمسلم أن يقول هذا وهو يقرأ في كتاب الله؟

﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ ^(٢) .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ ^(٣) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ^(٤) .

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ ^(٥) .

(١) الجهاد في الإسلام : الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٢-٢٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٠ . (٣) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٥١ . (٥) سورة المائدة : الآية ٨٢ .

وإن قيام دار الإسلام يقضي وجود دار الحرب. وقد نشأت دار الإسلام في المدينة بقيادة رسول الله ﷺ وكانت الدنيا كلها دار حربٍ ولا بدَّ من وقوع أحداث بين دار الإسلام وما جاورها من دار الحرب، وستكون الأحداث هناك بين مكة والمدينة للصراع الذي كان قائماً في مكة بين المسلمين وبين قومهم من المشركين ، فلما انتقل المسلمون إلى المدينة ووجدوا دعماً من بعض أهلها وهم الأنصار لذا فقد أصبح الأنصار والمهاجرون إليهم في خندقٍ واحدٍ يواجه خندق المشركين من قريشٍ.

ولما كانت طريق قوافل قريش في تجارتها إلى الشام تمرّ على مقربةٍ من المدينة، وليس لقريشٍ عن التجارة بدّ لذا لا بدّ من أن تقع أحداث بين الفريقين، وكان على رسول الله ﷺ أن يُسوِّي أمور جبهته الداخلية، وقد ذكرنا أن المدينة كان يسكنها:

١- الأنصار : من الأوس والخزرج الذين أسلموا، واتّبعوا رسول

الله ﷺ.

٢ - المهاجرون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وقد أقاموا مع الأنصار ، لأنهم خرجوا من ديارهم تاركين أموالهم ، ومتاعهم ، وأملاكهم، وهم بحاجةٍ إلى دعم إخوانهم.

٣- المنافقون الذين أظهروا الإسلام عندما وجدوا قومهم قد دانوا به، وذلك كي لا يفقدوا مركزهم.

٤- المشركون من الأوس والخزرج الذين بقوا على ما كانوا عليه من الشرك ، وكانوا قلةً نادرةً .

٥- اليهود بقبائلهم المختلفة، ولهم دورهم السياسي والاقتصادي في

٦- وكان الخلاف مستحكماً بين الأوس والخزرج ، وكانت بينهم أيام وحروب في الجاهلية ، وآخرها يوم «بُعث» ولا يزال في النفوس شيء منها. كان على رسول الله ﷺ أن يوحد كلمة المسلمين ليكونوا يداً واحدةً ضدّ الفئات الأخرى . فبنى المسجد فكان للمسلمين عامّةً، وأصبحت لقاءاتهم فيه، وانتهت أمكنة اللقاءات التي كانت للأحياء وللأسر ، فالتقت الجماعات، وفي المسجد يلتقون برسول الله ﷺ، يسألونه، ويتلقّون منه . ثم كانت المؤاخاة بين المسلمين مهاجرينهم وأنصارهم، وبذا أصبح المسلمون كتلةً واحدةً، وإخوةً مؤمنين . ثم التفت ﷺ إلى يهود فوادعهم^(١) . وبذا أصبحت المدينة كلها مسلمها وكافرها يداً واحدةً أمام الأعداء من الخارج. أما المنافقون فلا يظهرون على الساحة لتظاهرهم بالإسلام ، وأما المشركون فلا يؤبه بهم لقلّتهم. إذ أن قريشاً ربما تُفكّر في القيام بعملٍ ضدّ المدينة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فعل ذلك رسول الله ﷺ حتى يمكن تطبيق النظام داخل هذه المدينة المنبعثة من جديد . وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدتهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم. وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريشٍ ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريشٍ على ربّعتهم^(٢) يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم^(٣) بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربّعتهم يتعاقلون معاقلهم^(٤) الأولى، كل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط

(١) الموادة : شبه المصالحة والتصالح، والمسألة والمشاركة. وتوادع القوم : أعطى بعضهم بعضاً عهداً .
(٢) الرّبعة : الحال التي جاء الإسلام وهم عليها . (٣) العاني : الأسير . (٤) المعائل : الديارات .

بين المؤمنين. وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معا قلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقلٍ. وأن لا يُحالف مؤمنٍ دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة^(٢) ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصر كافرأ على مؤمنٍ، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين ينبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل

(١) المُفْرَحُ: المقتل بالديون.

(٢) الدسيعة: ما ينال منهم من ظلم.

الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط^(١) مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قود به إلا أن يرضى وليّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وإنه لا يحلّ لمؤمنٍ أقرّ بها في هذه الصحيفة، وأمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمدٍ ﷺ. وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ^(٢) إلا نفسه، وأهل بيته؛ وإن يهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف؛ وإن يهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف؛ وإن يهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف؛ وإن يهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف؛ وإن يهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف، وإن يهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشُّطبية مثل مالبيني عوف؛ وإن البرّ دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمدٍ ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإن من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرّ هذا؛ وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم، وإن

(١) اعتبط مؤمناً: قتله دون جنابة منه توجب قتله. (٢) يوتغ: يهلك.

لم يَأْثَمَ امرؤٌ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة؛ وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثِمٍ، وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمدٍ رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره^(١)، وإنه لا تُجَارُ قريش ولا من نصرها؛ وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصلحون ويلبسونه، فإنهم يصلحون ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم؛ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة^(٢).

وبهذا أصبح أهل المدينة جميعاً على اختلاف فئاتهم يداً واحدةً ضدّ الأعداء وضدّ الخارجين على تطبيق النظام، ويبدو من هذه الموادعة والمعاهدة:

١- أن للجماعة الإسلامية شخصية دينية وسياسية، ومن حقّها أن تؤمّن المطيع، وتعاقب المفسد.

٢- الحرية الدينية مكفولة للجميع ما لم يحصل من طرف ظلم أو إثم.

٣- على سكان المدينة من مسلمين وغيرهم أن يتعاونوا مادياً، وعسكرياً، وأدبياً، وعليهم أن يردّوا متساندين أي اعتداء قد يُوجّه لمدينتهم.

٤- رسول الله ﷺ هو المسؤول الأول عن سكان المدينة جميعهم.

(٢) سيرة ابن هشام.

(١) أي أن الله وعباده المؤمنين على الرضا به.

٥- الأمة تضم الجماعة التي تعتقد عقيدة واحدة بغض النظر عن الجوار والقراية ، أو الأرض ، أو النسب ، أو المصلحة ، أو اللغة ، أو الهوى ، أو المستوى الحضاري ، أو النظام لاقتصادي و... فهذا لا شيء أمام العقيدة ،

فالمسلمون يؤلفون أمةً واحدةً ، ويؤلف اليهود أمةً واحدةً على الرغم من الجوار ، والمدينة الواحدة واللغة والأحلاف السابقة .

٦- إن هذا الكتاب « كتاب المودعة » قد كُتب قبل أن تُفرض الجزية ، وإذ كان الإسلام ضعيفاً ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب .

ولكن أتى لليهود أن يحفظوا عهداً ، أو يرقبوا ذمّة ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾^(١) . ولكن الذين يبتغون عندهم العزة وعند الذين يُمهّدون لهم ، ويُنفذون أوامر سادتهم يُحاولون إظهارهم على غير حقيقتهم ، وعلى غير ما وصفهم الله سبحانه تعالى ، فيكتبون جملاً مبتورةً ، ويحذفون فقراتٍ ، فيقول أحدهم : « وأما الدستور والنظام ، فيتمثلان بالوثيقة التي أملاها رسول الله ﷺ على أصحابه ، بل على ذلك الجمع المتألف كله ، فيه اليهود بقباثلهم الثلاث .

وتتألف الوثيقة من بضع وسبعين بنداً ، صيغت كأحدث ما تُصاغ به الدساتير الحديثة اليوم . أول هذه البنود ينصّ قائلاً : (المسلمون من قريش ويشرب ومن تبعهم فلحقهم أمة واحدة ، من دون الناس) ، وآخر بندٍ فيها يقول : (كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديثٍ أو اشتجارٍ يُخاف فسادَه ، فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٠ .

ونلاحظ : ١- لم يبيّن الفرق بين المؤاخاة بين المسلمين وبين موادة

يهود .

٢- لم يذكر بنود الوثيقة كاملةً حتى لا تظهر فكرة الأمة
الواحدة جليةً.

٣- ذكر البند الأول، ولم يُوضّحه بما جاء بعده حتى يتوهّم
القارئ أن اليهود قد أُحقوا بالمسلمين.

٤- ذكر البند الأخير ليرسخ في الذهن أن اليهود قد وافقوا
ردّ الأمر إلى الله ورسوله.

٥- وأكّد في البداية أو أعاد التأكيد على الجمع المتآلف بين
المسلمين واليهود .

وهكذا تكون المغالطات والتلاعب بالنصوص والكلمات .

الوقائع : كانت حياة اليهود في المجتمع الإسلامي في المدينة كلها
نقض للعهود ، وخيانات للمسلمين، وكان اليهود بؤرة فاسدة ، يُحشى
منها، وما يقع منها، وما ينتج عنها. وقد وقع منهم وقائع كثيرة منها :

١- نصبت أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، لما
خصّ الله سبحانه وتعالى به العرب من أخذه رسوله منهم ﴿ ولما جاءهم
كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين
كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين بس ما شروا به
أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من

(١) الجهاد في الإسلام للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

عباده فباءوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذاب مهين ﴿١﴾. ولعل في حديث إسلام عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، ما يوضح ذلك، وكان حبراً عالماً، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته، واسمه، وزمانه الذي كنا نتوَكَّف (٢) له، فكنت مسرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرتُ، فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري: خبيك الله، والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما زدت! قال: فقلت لها: أي عمّة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بُعث بما بُعث به. قال: فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخبر أنه يُبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم، قال: فقالت: فذاك إذن. قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا.

قال: وكتمت إسلامي عن يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بُهت، وإني أحبُّ أن تُدخلني، وتغيّبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله ﷺ بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلّموه وساءلوه ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونّه مكتوباً عندكم في

(١) البقرة ٨٩-٩٠. (٢) تتوَكَّف: تتوقع.

التوراة باسمه ، وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به، وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي. قال : فقلت لرسول الله ﷺ : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدرٍ وكذبٍ وفجورٍ، قال : فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها^(١).

وفي حديث مخيريق مثل آخر على تلك العداوة من يهود على رسول الله ﷺ. كان مخيريق حبراً عالماً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أحدٍ، وكان يوم أحدٍ يوم السبت، قال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمدٍ عليكم الحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحدٍ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل^(٢).

وفي شهادة صفية، رضي الله عنها، مثال ثالث. قال ابن إسحاق : وحدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم، قال : حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحبُّ ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل قُباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مُغلسين. قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت : فأتيا كالأين كسلانين

(٢) المصدر السابق نفسه.

(١) سيرة ابن هشام.

ساقطين يمشيان الهوينى. قالت : فهششت إليهما، كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي، حبي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ؛ قال : أتعرفه وتُثبته ؟ قال : نعم ؛ قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (١).

هذه العداوة الواضحة من يهود لرسول الله ﷺ وهل يمكن أن يكون المجتمع متماسكاً إذا كان هؤلاء اليهود جزءاً منه ؟ وهل يمكن أن يكونوا جزءاً من مجتمع يقوده رسول الله ﷺ؟

٢- مرّ أحد اليهود ، وهو شاس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسا (٢)، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، من الأوس والخزرج. في مجلسٍ قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال : قد اجتمع ملأً بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرارٍ . فأمر فتىً شاباً من يهود كان معهم، فقال : اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .

ففعل . فتكلّم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى توثب رجلان من الحيين على الرُكب، أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس وجبّار بن صخر ، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال

(١) سيرة ابن هشام . (٢) عسا : أسن وولى.

أحدهما لصاحبه : إن شئتهم رددناها الآن جَذعة^(١) ، فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرّة - السلاح السلاح. فخرجوا إليها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال : يا معشر المسلمين، الله الله، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم؛ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، سامعين ومطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله، شاس بن قيس، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع : ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون. قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾^(٢).

وأنزل الله في أوس بن قيطي ، وجبار بن صخر ومن كان معها من قومها الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس بن قيس من أمر الجاهلية :: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾^(٣).

٣- ولما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فأمنوا وصدّقوا ورجعوا في

(١) جزعة : فتية ، المعنى رددنا الآخر إلى أوله. (٢) سورة آل عمران : الآية ٩٨-٩٩.

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٠٠-١٠١ .

الإسلام ، ورسخوا فيه، قالت أحبار يهود، أهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾^(١).

فأي مجتمع متماسكٍ واليهود جزء منه؟ لقد طُبعوا على الواقعة بين الناس.

٤- وكان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والحلف، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مباطنتهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبلاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسكم حسنة تسوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾^(٢). هذه أخلاق اليهود وهذه نظرهم للمسلمين، وحقدهم عليهم ، وكيدهم لهم، فهل يمكن أن يُشكّلوا معهم مجتمعاً متماسكاً كما يتخيّل بعض الناس، ويدعون إلى ذلك؟

٥- ولما أصاب الله عزّ وجلّ قريشاً يوم بدرٍ جمع رسول الله ﷺ يهود في سوق بني قينقاع ، حين قدم المدينة، فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ؛ فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك

(١) سورة آل عمران : الآيات ١١٣ . (٢) سورة آل عمران : الآيات ١١٨-١٢٠ .

من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش، كانوا أغماراً^(١) لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا^(٢).

فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فتيتين التقتا فمته تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾^(٣).

٦- كانت قبيلة بني قينقاع أول قبائل اليهود نقضاً لعهد المسلمين، وكان من أمرهم أن امرأة من العرب قدمت بَجَلْب^(٤) لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سواتها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع. فحاصرهم رسول الله ﷺ، حتى نزلوا على حكمه. فقام إليه عبدالله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ، حتى رأوا لوجهه ظللاً^(٥). ثم قال: ويحك! أرسلني؛ قال: لا والله لا أرسلك حتى تُحسن في موالي، أربعمئة حاسرٍ، وثلاثمئة دارعٍ قد منعوني

(١) أغمار: جمع غمر، وهو الذي لم يجرب الأمور. (٢) سيرة ابن هشام. (٣) سورة آل عمران: الآية ١٢-١٣. (٤) الجَلْب: كل ما يجلب إلى الأسواق لبيع فيها. (٥) الظلل: جمع ظلة وهي السحابة والمعنى تغير لون وجهه لشدة غضبه.

من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله ﷺ : هم لك . وفك رسول الله ﷺ الحصار عنهم ، بعد أن استمر خمسة عشر يوماً ، ثم أمر بإجلاتهم عن المدينة بعد أن نزلوا على حكمه ، فأجلي الرجال والذراري . وأخذ السلاح والعتاد غنيمةً للمسلمين .

وقال ابن إسحاق : وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي بن سلول ، وقام دونهم . قال : ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بني عوف لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل ، وإلى رسول الله ﷺ من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أتولى الله ورسوله ﷺ ، والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم . قال : ففيه وفي عبدالله بن أبي أنزل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

راكون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم
الغالبون ﴿١﴾ .

٧- لما وصل خبر معركة بدر إلى كعب بن الأشرف، أحد رجالات يهود،
قال : أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الرجال من قريش؟ فهؤلاء
أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم،
لبطن الأرض خير من ظهرها.

فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، وجعل يُحرض على
رسول الله ﷺ، ويُشد الأُشعار، ويبيكي أصحاب القليب من قريش
الذين أُصيبوا ببدر. ثم رجع كعب بن الأشرف فشَبَّ بنساء المسلمين
حتى آذاهم. ثم أرسل له رسول الله ﷺ من قتله.

٨- بعد غزوة أُحدٍ خرج رسول الله ﷺ، إلى يهود بني النضير يستعينهم
في دية رجلين من بني عامرٍ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ، عقد لهما،
وكان بين بني النضير وبني عامرٍ حلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ، قالوا :
نعم، يا أبا القاسم، نُعينك ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا
بعضهم ببعض، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه
ورسول الله ﷺ، إلى جنب جدارٍ من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على
هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن
جَحَّاش بن كعب، أحدهم، فقال : أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه
الصخرة، كما قال، ورسول الله ﷺ، في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر،
وعمر، وعلي، رضوان الله عليهم.

(١) سورة المائدة : الآيات ٥١-٥٦ .

فأتى رسول الله ﷺ، الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة. فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه؛ فقال: رأيته داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم الخبر، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. واستعمل على المدينة عبدالله بن أم مكتوم، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها. وبعث المنافقون إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نُسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم. فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجلبهم، ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة^(١)، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف^(٢) بابه، فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام. فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها^(٣). إنهم استقلوا بالنساء والأبناء، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حنيف، وأبا دجاجة

(١) الحلقة: السلاح، وربما اقتصت بالدروع.

(٢) نجاف: الخشبة التي بأعلى الباب، وهي عتبه.

(٣) سيرة ابن هشام.

سِياك بن خرشة ذكرا فقراً فأعطاها رسول الله ﷺ. ونزلت سورة الحشر كاملةً في بني النضير .

٩- إن اليهود هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، يوم الخندق، إذ خرج نفر من بني النضير حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بها أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه فأنزل الله : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً... ﴾ (١).

ثم خرج أولئك النفر من يهود ، حتى جاءوا غطفان، من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه .

وخرج عدو الله حُيي بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحُيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُيي: ويحك يا كعب افتح لي؛ قال : ويحك يا حُيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً؛ قال : ويحك! افتح لي أكلمك؛ قال : ما أنا بفاعل؛ قال :

(١) سورة النساء .

والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك^(١) أن أكل معك منها؛ فأحفظ الرجل^(٢)، ففتح له؛ فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعزّ الدهر وبيحرٍ طام، جئتك بقريشٍ على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أحدٍ، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذلّ الدهر، وبجهام^(٣) قد هَرَّاق ماءه، فهو يُرعد ويُبرق ليس فيه شيء، ويحك يا حُيي دعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً، فلم يزل حُيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له، على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يُصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده، وبريء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر، وإلى المسلمين، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دُليم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبدالله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوالي لحنأ أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول

(١) الجشيشة: طعام يصنع من القمح المجروش.

(٢) أحفظ الرجل: أغضبه.

(٣) الجهم: السحاب الخفيف الذي لا مطر فيه.

الله ﷺ ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه^(١) ، وكان رجلاً فيه حدة ، فقال له سعد ابن عباد : دع عنك مشاتمهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معها إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة ، أي : كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه ؛ فقال رسول الله ﷺ الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين . وعظم عند ذلك البلاء ، واشتدّ الخوف ، وأتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظنّ ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال مُعْتَب بن قشير ، أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط .

وحتى قال أوس بن قيثي ، أحد بني حارثة بن الحارث : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، وذلك عن ملأ من رجال قومه ، فائذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا ، فإنها خارج من المدينة ، فأقام رسول الله ﷺ ، وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلةً ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم إلا الرّميا^(٢) بالنبل والحصار^(٣) . واشتدّ على الناس البلاء .

ثم وقع الخلاف وسوء الظنّ بين الأحزاب بعد مرور نُعيم بن مسعود عليهم ، والحديث معهم ، كما هو معروف . ثم أرسل الله عليهم الريح وجنوداً لم يروها ، فوقع الخوف ، ورأى سيد قريش ، أبوسفیان أنه لا بدّ من الرحيل ، فقال : يا معشر قريش ، إنكم ، والله ، ما أصبحتم بدار مقام ، لقد

(١) كان بنو قريظة في الجاهلية حلفاء الأوس قوم سعد بن معاذ .

(٢) الرّميا : المراماة . (٣) سيرة ابن هشام .

هلك الكراع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي ننكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تظمن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا إني مرتحل^(١). وانشمر الأحزاب راجعين إلى بلادهم.

واتجه رسول الله ﷺ مع المسلمين إلى بني قريظة لتأديبهم على خيانتهم في نقض العهد ، والتحالف مع الأحزاب على قتال المسلمين .

وقدّم رسول الله ﷺ، علي بن أبي طالبٍ برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس. فسار علي بن أبي طالبٍ، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحةً لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأحابث؛ قال (لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟) قال : نعم، يا رسول الله؛ قال : (لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً). فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال : (يا إخوان القردة ، هل أحزاكم الله ، وأنزل بكم نعمته؟). قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلةً حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

وقد كان حُيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرفٍ عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسد لهم : يا معشر يهود ، قد نزل من الأمر ماترون، وإني عارض

(١) المصدر السابق نفسه.

عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شتمتم؛ قالوا: وما هي؟ قال: تُتابع هذا الرجل ونُصدّقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبيّ مرسل، وإنه للذي تجدونّه في كتابكم، فتأمّنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نُفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم عليّ هذه، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمدٍ وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمدٍ، فإن نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن ظهر فلعمري لنجدنّ النساء والأبناء؛ قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمدٍ وأصحابه غرّةً؛ قالوا: نُفسد سبتنا علينا، ونُحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً.

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ، إليهم، فلما رأوه، قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أتري أن ننزل على حكم محمدٍ؟ قال: نعم، وأشار بيده على حلقه، أي: إنه الذبح. قال أبو لبابة؛ فوالله ما زالت قدمي من مكانها حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ، حتى ارتبط في المسجد إلى عمودٍ من عمدته، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت، وأعاهد الله: أن لا أطأ بني

قريظة أبدأً، ولا أرى في بلدٍ خنت الله ورسوله فيه أبدأً.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه، قال (أما إنه لوجاءني لا ستغفرت له، فأما إذ قد فعل فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. ونزلت توبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ في السحر ﴿﴾ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴿﴾^(١). فسار الناس إليه ليطلقوه، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ، هو الذي يُطلقني بيده. فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ، خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، فقالوا : يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له - فلما كلمته الأوس، قال رسول الله ﷺ : (ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟)، قالوا : بلى، قال رسول الله ﷺ : (فذاك إلى سعد بن معاذ)، فلما جاء سعد أخذ الأوس يقولون له : يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ، إنما ولّك ذلك لتُحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال سعد : فيأني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء. قال رسول الله ﷺ، لسعدٍ : (لقد حكمت فيهم

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٢ . قاله مجاهد انظر تفسير القرطبي، وابن كثير

بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) (١).

وضربت أعناقهم وفيهم حُيي بن أخطب، وكعب بن أسدٍ رأس القوم، وهم ستائة أو سبعمائة، وأتى بحُيي بن أخطب عدو الله، مجموعة يده إلى عنقه بحبلٍ، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك. ثم جلس فُضرت عنقه.

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين. واصطفى رسول الله ﷺ، لنفسه ريحانة بنت عمرو بن خُنانة، وقد أسلمت. وأنزل الله تعالى في أمر الخندق، وأمر بني قريظة ما جاء في سورة الأحزاب.

٩- تجمّع اليهود في خيبر بعد أن ارتحل إليها بعض بني قينقاع، وأكثر بني النضير، ومن هناك أخذوا يمحكون المؤامرات، ويدبّرون الخطط، والحيل لضرب المسلمين، ونال أذاهم المسلمين، فقرر رسول الله ﷺ غزوهم في عقر دارهم بعد أن تمّ صلح الحديبية مع قريش، وهدأت بذلك الجبهة الجنوبية.

١٠- بعد القضاء على بني قريظة بقي في المدينة بعض اليهود على شكل أسرٍ، أو مجموعاتٍ صغيرة، لم يُشاركوا في غدر بني قريظة لذا لم يتعرّض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم أمينين مطمئنين على أموالهم، وأملاكهم، وأعراضهم، في ذمة الله، وذمة رسوله، وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدةً، وأكثر المسلمين يستدين منهم، وما أن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم،

(١) الأرقعة : السموات .

وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم على الرغم من قتلهم، وحياتهم في أمنٍ وطمأنينةٍ، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً، وأرادوا إضعاف معنويات المسلمين بالتحدّث عن قوة اليهود في خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي أن أحد جنود المسلمين إلى خيبر قال: فلما تجهّزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحدٍ من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعيرٍ أخذه لأهله، فلزمه، فقال: أجلني فإني أرجو أن أقدم عليهم فأقضيك حَقك - إن شاء الله - إن الله عزَّ وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الأعراب، فيها - والتوراة - عشرة آلاف مُقاتل، فقال: ابن أبي حدرد: أي عدوّ الله تخوّفنا بعدوّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ يُحرِّك شفّتيه بشيءٍ لم أسمع، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم هذا قد ظلمني، وحبسني بحقي، وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: (اعطه حقّه). قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقّه، فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين،

ونفّلني الله خيراً، وغنمت امرأةً بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بهال^(١).

وفتحت خيبر - بإذن الله - لرسول الله ﷺ. وتمّ الاتفاق على أن يخلي اليهود الحصون كلها، ويُسلموا ما فيها إلى المسلمين، إضافةً إلى أسلحتهم، وأن يجلبوا عن خيبر إلى الشام وأن يأخذوا من الأموال ما يمكن حمله، وأن يدلّوا على كنوزهم، وأن لا تُسبى الذراري على الرغم من أن البلاد تُعدّ قد فتحت عنوةً إذ انهارت كل مقاومةٍ لليهود، ولكن رسول الله ﷺ قد تسامح معهم. ثم إن الرسول ﷺ، قد سمح لليهود بالبقاء في خيبر ليعملوا كأجراء في الأرض مقابل جزءٍ من المحصول يتفق عليه الطرفان، واتفقوا على أن يكون لليهود نصف الثمار، ويحق للمسلمين أن يُخرجوا اليهود منها في أي وقتٍ شاءوا.

١١ - وبعد غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم شاةً مصليةً^(٢)، وقد سألت أي عضوٍ من الشاة أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السمّ، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فلاك منها مضغَةً، فلم يُسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ؛ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: (إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم)، ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: (ما حملك على ذلك؟). قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحتُ منه، وإن كان نبياً فسيُخبر. قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التي أكل.

(١) الواقدي: الجزء الثاني ص ٦٣٤. (٢) مصلية: مشوية.

قال ابن إسحاق : وحَدَّثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد المَعَلّي ، قال : كان رسول الله ﷺ ، قد قال في مرضه الذي تُوفّي فيه ، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تَعوده : (يا أم بشر ، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخير) . فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ ، مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة^(١) .

١٢ - كان اليهود يعدّون أنفسهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحبّاءه ، يقول الله تعالى : ﴿ وقال اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾^(٢) . ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾^(٣) . هذه نظرة الكبر والخطورة الفارغة عند اليهود هي التي تجعلهم لا يستطيعون التعايش في مجتمع ، حيث كانوا مكروهين من كل من يعيش معهم ، لأنهم يتصوّرون أنه ليس لديهم مانع من أكل أموال الآخرين ظلماً بل يرون أن هذا من حقهم ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾^(٤) .

١٣ - أقام يهود خيبر في بلدتهم التي أصبحت في حوزة المسلمين وضمن أملاكهم ، وإن كان اليهود فيها ولكن أجراء ، وقد أظهروا الطاعة ،

(١) سيرة ابن هشام . (٢) سورة المائدة : الآية ١٨ .
(٣) سورة الجمعة : الآية ٦ . (٤) سورة آل عمران : الآية ٧٥ .

ولم ير المسلمون بهم بأساً في معاملتهم، يُظهرون ذلك، غير أنهم في الواقع يضمرون حقدًا، ويخفون شرًّا، فإذا انفردوا بمسلم قتلوه، وعملوا على إخفاء جريمتهم، ولا يتركون فرصةً يمكنهم فيها النيل من المسلمين إلا فعلوا إن ظنوا أنهم يستطيعون إخفاءها، فعدوا في عهد رسول الله ﷺ على عبدالله بن سهل، أخي بني حارثة، فقتلوه، فاتهمهم رسول الله ﷺ، والمسلمون عليه. وكان قد ذهب إلى خيبر لي جلب تمرًا، ولم يعد، فوجد في عينٍ قد كُسرت عنقه، ثم طُرح فيها، فعلم أهله فأخذوه ودفنوه، وقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له شأنه. فكتب رسول الله ﷺ إلى يهود: إنه قد وُجد قتيل بين أبياتكم فأدوا ديتهم، فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه، ولا يعلمون له قاتلاً. فأدى رسول الله ﷺ، الدية لأهله من عنده، ورأى أنه لأبد من إخراج أهل الكتاب من جزيرة العرب.

١٤ - عن أبي عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، قال: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ: (أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب)^(١).

وعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: (لا يُترك بجزيرة العرب دينان)^(٢).

عن جابر، رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لئن عشت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أترك فيها إلا مسلمًا)^(٣).

(١) رواه أحمد والبيهقي.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم.

وروى نافع مولى عبدالله بن عمر ، عن عبدالله بن عمر ، قال : خرجت أنا ، والزبير ، والمقداد بن عمرو إلى أموالنا بخير نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا، قال فعُدي عليّ تحت جناح الظلام، وأنا نائم على فراشي، ففدعت يداي من مرفقيّ، فلما أصبحت استصرخ عليّ صاحبائي ، فأتياني فسألاني : من صنع هذا لك؟ فقلت : لا أدري ، قال : فأصلحنا من يديّ ، ثم قدما بي على عمر ، رضي الله عنه ، فقال هذا عمل يهود ، ثم قام في الناس خطيباً فقال : أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خبير على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبدالله عمر، ففدعوا يديه، كما قد بلغكم على عدوهم على الأنصاري^(١) قبله، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخير فليلحق به، فإني مخرج يهود، فأخرجهم^(٢).

هذا وضع اليهود في المدينة منذ وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجراً حتى وفاته ﷺ بل حتى أخرجهم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، من الحجاز حياة كلها غدر وخيانة وحبك مؤامرت، وإثارات القبائل ضدّ المسلمين، وتحزيب الأحزاب للقضاء على المسلمين في المدينة. فأبي مجتمع متماسكٍ ومتآلفٍ هذا كان يجمع المهاجرين والأنصار واليهود، يتكلم عنه إنسان ناهيك أن يكون مسلماً يتحدّث عن علم ودرايةٍ حسبما يزعم ، لكنه الهوى الذي يجمّل في عين صاحبه حب الظهور، والرغبة في المكانة فيقلب الحقائق ، ويُغالط في الكتابة حتى يظنّ أن الناس لا يُدركون مغالطاته، ويقبلون كلامه، وخاصةً إن كان يعيش في الحمى ، ولا يستطيع أحد أن يردّ عليه أو يُواجهه بالحقائق إلا إذا كان

(١) يقصد : عبدالله بن سهل .

(٢) سيرة ابن هشام .

يريد مغادرة الدنيا بأسلوبٍ وحشيٍّ هذا بالإضافة إلى أن لليهود اليوم مركزاً دولياً بسبب الدعم الذي يلقونه، والتأييد الذي يحصلون عليه، ومحاوله فرض سلطانهم على المنطقة، لذا أخذ أصحاب الهوى يتلاعبون في حوادث التاريخ ليحصلوا على الرضا. وينالون المكانة عند الذين يمهدون لليهود ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾^(١).
 ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾^(٢).

١٥- وفوق هذا كله فقد غضب الله على اليهود ولعنهم، وذكر عداوتهم الشديدة للمؤمنين، وأنهم والمشركون أشد الناس عداوةً لمن آمن. وكذلك فقد غضب عليهم رسول الله ﷺ، ولعنهم، فهل يمكن لهؤلاء الذين غضب الله عليهم ورسوله أن يؤلفوا مع المسلمين مجتمعاً متماسكاً كما يقول من قال .

● يقول تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾^(٣). ورأي الجمهور أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى، وجاء ذلك مفسراً عن النبي ﷺ في حديث عدي بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، والترمذي في جامعه، وشهد لهذا التفسير أيضاً قوله سبحانه في اليهود: ﴿وباءوا بغضبٍ من الله﴾^(٤) و﴿غضب الله عليهم﴾^{(٥)،(٦)}.

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٦١ .

(٦) تفسير القرطبي

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ .

(٣) سورة الفاتحة : الآيتان ٦-٧ .

(٥) سورة المجادلة : الآية ١٤ .

● ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾^(١).

● ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾^(٢).

● ﴿ قل هل أنبئكم بشرٌ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾^(٣).

● ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾^(٤).

● ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾^(٥).

﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناسَ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾^(٦).

وآيات كثيرة من كتاب الله تذكر غضب الله ولعنه لليهود لكفرهم وما هم عليه من الطبائع السيئة والمعاملات الدنيئة ، منها الكفر بكل ما يُنزل الله من فضله على من يشاء من غيرهم ، بل وإنكار ما يأتيهم من عند الله ، والجحود بآيات الله ، وقولهم على الله ما لم يتصف به ابتداءً من عند

(١) سورة البقرة: الآية ٦١ . (٢) سورة البقرة: الآيات ٨٨-٩٠ (٣) سورة المائدة: الآية ٦٠
(٤) سورة المائدة: الآية ٦٤ (٥) سورة المائدة: الآيات ٧٨-٧٩ . (٦) سورة المائدة: الآية ٨٢

أنفسهم، وعدم التناهي فيما بينهم عن المنكرات التي يفعلونها، وقتل الأنبياء بغير حق، ونقض العهود والمواثيق، والكذب على الله، والغدر، والخيانة، والغيرة والحسد لكل من يأتيه فضل من الله، وارتكاب المحرمات والمتاجرة بها، وأمور كثيرة قاتلهم الله أنى يؤفكون...

فكيف بعد هذا ينبري بعض المتعلمين ليجعلوهم أكفاء للمسلمين في مجتمع واحد، ويصفوا هذا المجتمع بالتماسك والتآلف؟.

إن كل مجتمع يضم عناصر فاسدة ثم تُساوى مع العناصر الصالحة لا بد من أن يطغى الفساد، ثم ينهار المجتمع، وهذا لا يمكن أن يحدث في الإسلام ومعاذ الله أن يؤسس رسول الله ﷺ مجتمعاً من هذا النوع!!!.

أما المرجفون، والذين في قلوبهم مرض، والمنافقون فهم في كل مجتمع، ولكن يُظهرون الطاعة، ويُبدون الصلاح، ويتسابقون إلى فعل الفضائل التي عليها المجتمع. فقد كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ، يتسابقون إلى الصفوف الأولى في الصلاة، فإذا سنحت لهم فرصة بيتوا غير الذي يقولون وغير ما يُبدون، وإذا بدا ضعف في المجتمع تصدروا مجالس التزلف، وإذا ظهر عدو على أمتهم، أو سالمها كانوا أسبق الخلق لتبرير أخطاء العدو في الماضي، وادّعوا له صفات ليس له، وساروا في طريقة الزحف الكلامي نحوه، يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة، فيحسبنا الخصم أننا من الذين كانوا يُرهبونه ويُخوّفونه ما دمنا نحن ودعاة الإسلام ننتمي إلى فكرٍ واحدٍ، ونحمل سمةً واحدةً.

ونذكر فعل رأس النفاق في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول في دفاعه عن يهود بني قينقاع وقوله: إني والله امرؤ أخشى الدوائر. وقد أنزل الله في

ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين. فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾^(١).

وما أن ظهرت فكرة السلام مع اليهود في منطقة (الشرق الأوسط) حتى سارع الذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المنطقة يُغالطون في تاريخ اليهود، ويُحاولون قلب الحقائق رغبةً في لفت النظر إليهم، وتقديم الأيدي البيضاء عند من يتوقعون أن يكون لهم دور، وتنفيذاً لمواقف السادة، وتمهيداً لإظهار سلامتهم وصدقهم. ولما كان الجهاد في الإسلام هو الموقف المخيف للأعداء جميعاً من أي صنفٍ كانوا، وذلك على مدار التاريخ الإسلامي، لذا كان الأعداء أكثر ما يخشونه من المسلمين إعلان الجهاد، أو الدعوة إليه. لهذا ظهرت كتب تحمل هذا العنوان وليس فيها من الحق، وصدق القول، وصحة الدعوة سوى العنوان فقط. وفي ذلك تبرئةٌ للنفس من أن تتهم بتأييد الجهاد، ومحاولةٌ لمدّ قنوتٍ للحصول على المكانة أو البقاء عليها سواء أكان ذلك في الوضع القائم أم في المرتقب.

وقد أدى أحد الكتاب بعض أغراضه إذ خُدع به الكثير لخلو الساحة، واحتكار البيان لساناً وقلماً على الذين يقطعون الساحة طويلاً وعرضاً بحرية، يحملون الضوء الأخضر في البيان، ولا يملك ذلك سواهم، لأنهم من الذين يخشون الدوائر لذا فهم مع القائم يُحسنون المداهنة، ويُجيدون المصانعة، ويعرفون أساليب التقرب، ويملكون البيان، ويُتقنون

(١) سورة المائدة: الآية ٥١-٥٢.

المغالطات، وتغيير الحقائق ، وينظرون إلى المستقبل فيمهدون لما يتوقعون دون النظر إلى الذي يُتاجرون به من صفات العلم ، وموقع العمل . وما الله بغافل عما يعملون .

جهاد المجتمع : بعد هجرة رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، رضوان الله عنهم ، من مكة إلى المدينة، وبعد مدةٍ وجيزةٍ من الإقامة في دار الهجرة أصبح المجتمع إسلامياً ، مادام الحكم فيه بما أنزل الله، وهو بيد رسول الله . ولا ينظر إلى الأقليات التي بقيت من اليهود أو من الخزرج والأوس الذين لم يدخلوا بالإسلام بعد ، أما المنافقون فلا يعرفون، وهم يُظهرون الإسلام فلا دور لهم ، وما دام الحكم إسلامياً فالمجتمع إسلامي ، وللاقليات حياتهم الخاصة، وأحكامهم الخاصة .

لم يعد هناك أشخاص طغاة يعتدون على المسلمين ، كما كان الوضع في مكة، بل إن كل من يتجاوز الحد ينال جزاءه، فقد حرّض كعب بن الأشرف على المسلمين، وتمادى في غيّه فقتل بأمر رسول الله ﷺ قبل أحدٍ على يد جماعة من الأوس ، وحزّب سلام بن أبي الحقيق ضدّ المسلمين ، وتجاوز حدّه، وظنّ أنه في منأى، بعيداً عن أيدي المسلمين، إذ هو بخبير ، فخرجت إليه جماعة من الخزرج بأمر رسول الله ﷺ وقتلته، وهو في عقر داره ، وذلك بعد غزوة الخندق، والانتهاه من أمر بني قريظة .

وعلى هذا لم يعد هناك صبر من المسلمين على أذى الطغاة ، فبقي الجهاد بنشر الدعوة بياناً ، كما أن القتال قد فرض ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾^(١) . قيل : هذا بيان قوله ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا... ﴾^(٢) أي يدفع عنهم غوائل الكفار بأن يبيح

(١) سورة الحج : الآية ٣٩ . (٢) سورة الحج : الآية ٣٨ .

لهم القتال وينصرهم، وفيه إضمار، أي أذن للذين يصلحون للقتال في القتال، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحاك: استأذن أصحاب رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ كُلَّ خَوَانٍ كَفُورٍ﴾^(١) فلما هاجر نزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ أَنْ يُجَاهِدُوا﴾. وهذا ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك صفح، وهي أول آية نزلت في القتال^(٢).

ولم يعد هناك تنظيم للمسلمين، لأن التنظيم وُجد عندما كانوا أقليةً لتدبير أمورهم، وترتيب شؤونهم من تعليم، ومساعدات، ونقل ما ينزل به الوحي و... أما الآن فالسلطة هي المسؤولة عن هذا كله، والمسلمون جميعاً رعية لها.

فبقي الجهاد في المجتمع الإسلامي هو الدعوة، وقاتل من يقف في وجه الدعوة، وزال التنظيم والصبر على أذى الكفار إذ غدت السلطة الإسلامية هي صاحبة الأمر، وليس هناك من يستطيع أن يؤذي المسلمين ليكون جهادهم الصبر.

أخذ رسول الله ﷺ بتبيان الدعوة، وإبلاغ المسلمين ما ينزل به الوحي، وتعليمهم أمور الدين، وإقراءهم القرآن، وفي الوقت نفسه كان يبعث السرايا إلى خارج المدينة. فبعد أن مضى على الهجرة ما يقرب من ستة أشهر، وطّد رسول الله، عليه الصلاة والسلام، خلالها الجبهة الداخلية وأخذ يسير السرايا وينطلق مع الغزوات، وكانت غايتها معرفة الطرق التي حول المدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وفجاج المنطقة التي هي ممر

(١) السورة الحج: الآية ٣٨. (٢) تفسير القرطبي.

لقوافل قريش، ثم التعرّف على القبائل التي كانت تقيم على تلك الأرض لإمكانية دعوتها وكسبها للإسلام، أو لصفّ المسلمين في البداية، أو لضمان حيادها على الأقل فيما إذا اندلعت نار الحرب بين المسلمين وبين قريش في مواطن تلك القبائل ومنازلها، إذ كانت تلك البقعة نقطة التماس بين الجانبين، أو ستكون، وفيها يمكن أن تدور رحى المعركة المرتقبة لذا كان على المسلمين أن يعرفوا هذه الأرض معرفةً جيدةً، إذ لا يمكن للجماعة أن تخوض معركةً ناجحةً في أرض لا تعرف معالمها، لذا كانت السرايا الأربعة الأولى، والغزوات الأولى الأربعة كلها من المهاجرين الذين لا يعرفون المنطقة على حين يعرفها الأنصار، هذا إضافةً إلى أن سكان هذه المنطقة يمكنهم أن يلعبوا دوراً في هذه الحرب، أو تكون لهم يد في التحرش بين الطرفين بسبب غدو قوافل قريش ورواحها منها.

وكذا كان من مهمة هذا السرايا والغزوات الاستطلاعية التعرّض إن أمكن لقوافل قريش ومنعها، أو أخذها لإضعافها اقتصادياً، وإثبات مكانة وقوة الكيان الإسلامي، وإجبار قريش على الاعتراف بهذا الكيان، ثم نشر تلك الأخبار بين قبائل العرب كلها لمعرفة قوة المسلمين، وضعف قريش، وإظهار أن المسلمين قد أصبحوا أكبر قوة في الجزيرة، وإسراع أصقاع الأرض المأهولة آنذاك - إن استطاعوا بخبر هذا الدين الجديد، ومبادئه السامية التي تتماشى مع فطرة البشر، فيقبل عليه الناس، ولا يخشون طواغيتهم إذ أن وراءهم قوة رادعة، وبهذا تنتشر الدعوة.

فالسرايا والغزوات الأولى كانت استطلاعيةً، قتاليةً، إعلاميةً، دعويةً.
وقد انتهت في شهر رجب / من السنة الثانية للهجرة، وهي :

- ١- سرية الحمزة.
- ٢- سرية عبدة بن الحارث.
- ٣- سرية سعد بن أبي وقاص.
- ٤- غزوة ودّان.
- ٥- غزوة بواط.
- ٦- غزوة العشيرة.
- ٧- غزوة بدر الأولى.
- ٨- سرية عبدالله بن جحش.

وكانت آخر هذه السرايا والغزوات الاستطلاعية هي سرية عبدالله بن جحش التي وصلت إلى نخلة بين مكة والطائف أي إلى مقربةٍ من ديار قريش، وكان هدفها رصد قريش، ومعرفة أخبارها.

وبعد هذه الغزوات والسرايا الاستطلاعية أخذ القتال يدور بين المسلمين وغيرهم من قريش، وبقية القبائل العربية، واليهود، والروم. وبلغت الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ، بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً، وهي :

- ١- غزوة ودّان.
- ٢- غزوة بواط.
- ٣- غزوة العشيرة.
- ٤- غزوة بدر الأولى.
- ٥- غزوة بدر الكبرى.
- ٦- غزوة بني سليم.
- ٧- غزوة السويق..
- ٨- غزوة ذي أمر.
- ٩- غزوة بحران.
- ١٠- غزوة أحد.
- ١١- غزوة حمراء الأسد.
- ١٢- غزوة بني النضير.
- ١٣- غزوة ذات الرقاع.
- ١٤- غزوة بدر الآخرة.
- ١٥- غزوة دومة الجندل.
- ١٦- غزوة الخندق.
- ١٧- غزوة بني قريظة.
- ١٨- غزوة بني لحيان.

- ١٩ - غزوة ذي قرد. ٢٢ - غزوة الغابة. ٢٥ - غزوة حنين.
 ٢٠ - غزوة بني المصطلق. ٢٣ - غزوة خيبر. ٢٦ - غزوة الطائف.
 ٢١ - غزوة الحديبية. ٢٤ - غزوة الفتح. ٢٧ - غزوة تبوك.

وقد وقع القتال في تسعٍ منها، وهي: بدر، وأحد، والخذق، وقریظة، والمصطلق، وخیبر، والفتح، وحنين، والطائف^(١).

عن أبي إسحاق: كنت إلى جانب زيد بن أرقم، فقيل له: كم غزا النبي ﷺ، من غزوة؟ قال: تسع عشرة، قيل كم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة، قلت: فأيهم كانت أول؟ قال: العُشَيْرُ أو العُسَيْرَةُ، فذكرت لقتادة فقال: العُشَيْرَةُ^(٢).

عن زيد بن أرقم: أن النبي ﷺ، غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حجَّ بعد ما هاجر حجَّةً واحدةً لم يُحجَّ بعدها «حَجَّةُ الْوَدَاعِ». قال أبو إسحاق: وبمكة أخرى^(٣).

عن جابر بن عبد الله، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ، تسع عشرة غزوة. وقال: لم أشهد بدرًا ولا أحدًا. منعني أبي. فلما قُتل عبد الله يوم أحد، لم أتخلف عن رسول الله ﷺ، في غزوةٍ قط^(٤).

ويبدو أن الخلاف في عدد الغزوات يعود إلى حساب خروج رسول الله ﷺ، من المدينة غزوةً أم لا، كالخروج إلى الحديبية، وإلى عمرة القضاء، وإلى الغزوات التي كانت قبل بدر الكبرى: ودان، بواط، العشيرة، بدر الأولى، وهذا ما يظهر من كلام جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما.

(١) سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد.

(٢) متفق عليه. (٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

أما السرايا والبعوث فهي :

- ١- سرية الحمزة بن عبدالمطلب.
- ٢- سرية عبيدة بن الحارث.
- ٣- سرية سعد بن أبي وقاص.
- ٤- سرية عبدالله بن جحش.
- ٥- سرية عمير بن عدي.
- ٦- سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف.
- ٧- سرية زيد بن حارثة الأولى.
- ٨- سرية أبي سلمة.
- ٩- سرية عبد الله بن أنيس.
- ١٠- سرية مرثد بن أبي مرثد الغنوي. «الرجيع».
- ١١- سرية المنذر بن عمرو الساعدي. «بئر معونة».
- ١٢- سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء.
- ١٣- سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغممر.
- ١٤- سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة.
- ١٥- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة.
- ١٦- سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجمام.
- ١٧- سرية زيد بن حارثة إلى العيص.
- ١٨- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف.
- ١٩- سرية زيد بن حارثة إلى حسمى.
- ٢٠- سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى.
- ٢١- سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.
- ٢٢- سرية علي بن أبي طالب إلى فدك.
- ٢٣- سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة.
- ٢٤- سرية عبدالله بن عتيك إلى أبي رافع.
- ٢٥- سرية عبدالله بن رواحة إلى أسير بن رزام.
- ٢٦- سرية كرز بن جابر الفهري.
- ٢٧- سرية عمرو بن أمية الضمري.

- ٢٨- سرية عمر بن الخطاب إلى تربة.
- ٢٩- سرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب.
- ٣٠- سرية بشير بن سعد إلى فدك.
- ٣١- سرية غالب بن عبدالله الليثي.
- ٣٢- سرية بشير بن سعد إلى اليمن وجبار.
- ٣٣- سرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم.
- ٣٤- سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى بني الملوح.
- ٣٥- سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى ناحية فدك.
- ٣٦- سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر.
- ٣٧- سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاق.
- ٣٨- سرية مؤتة.
- ٣٩- سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل.
- ٤٠- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر.
- ٤١- سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى الخضرة.
- ٤٢- سرية أبي قتادة إلى بطن إضم.
- ٤٣- سرية خالد بن الوليد إلى العزى.
- ٤٤- سرية عمرو بن العاص إلى سواع.
- ٤٥- سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة.
- ٤٦- سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة.
- ٤٧- سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين.
- ٤٨- سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم.
- ٤٩- سرية قطبة بن عامر إلى خثعم.
- ٥٠- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب.
- ٥١- سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة.
- ٥٢- سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس.

- ٥٣- سرية عُكَّاشَةَ بْنِ مَحْصَنٍ
الأسدي إلى أرض عذرة وبلي .
- ٥٤- سرية علي بن أبي طالب إلى
اليمن . (يقال مرتين) .
- ٥٥- سرية خالد بن الوليد إلى بني
عبدا المدان بنجران .
- ٥٦- سرية أسامة بن زيد .
- ٥٧- سرية ابن أبي حدرد إلى بطن
إضم .
- ٥٨- سرية ابن أبي حدرد الثانية
لقتل رفاعة بن قيس الحبشي .
- ٥٩- سرية سالم بن عمير .
- ٦٠- سرية عمير بن عدي الخطمي .

ويقول ابن سعد أن عدد الغزوات سبع وعشرون غزوة، وأن عدد السرايا سبع وأربعون سريةً. أما ابن هشام فيقول : وكان جميع ما غزا رسول الله ﷺ، بنفسه سبعاً وعشرين غزوةً. وكانت بعوثه ﷺ وسراياه ثمانية وثلاثين، من بين بعثٍ وسريةٍ. وقد ذكر أحدهما من السرايا مالم يذكر الآخر .

خرج من المدينة في المدة التي عاشها رسول الله ﷺ، في دار الهجرة، وهي أكثر من عشر سنوات بقليل ما يزيد على ثمانين جماعةً ما بين غزوةٍ أو سريةٍ أو بعثٍ، وما بين جيش كاملٍ إلى فئَةٍ تخرج لتؤدي مهمةً أي أن المسلمين يخرجون من المدينة أكثر من سبع مرات في السنة الواحدة للجهاد في سبيل الله أي بمعدل أكثر من مرةٍ كل شهرين ، وهذا يعني أن القتال هو الصفة الأساسية والسمة العامة للجهاد في هذه المرحلة . وهو واجب المجتمع المسلم في كل وقتٍ . ومع هذا يعدّ الذين في قلوبهم مرض أن القتال في سبيل الله لم يكن إلا في ظروفٍ استثنائيةٍ .

وما أن توفي رسول الله ﷺ، حتى كان معظم الجزيرة العربية قد دان بالإسلام، وأصبح منذ السنة التاسعة للهجرة، بعد نزول سورة براءة لا يسمح لمشرك أن يبقى في المجتمع الإسلامي ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾^(١).

واستمر القتال وانتشار الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ففي العهد الراشدي دخل المسلمون دولة فارس، وفتحوا أرضها، فزال سلطانها، وانتهت مجوسيتها، وعم الإسلام أقاليمها. وفتح المسلمون أيضاً أجزاء واسعة من دولة الروم، وقد انتشر الإسلام في هذه الأجزاء، وانكسرت النصرانية، وأصاب الرعب الروم حكماً ورعيّةً فانزوا في جحورهم ينتظرون ضعف المسلمين، وارتفعت راية الإسلام، وكانت كلمة الله هي العليا.

وتتابعت عمليات الفتح في العهد الأموي، وتوسّعت ديار الإسلام، وساد دين الله كل أرض دخلها المسلمون، وطرق المجاهدون أبواب الصين شرقاً، وحاصروا القسطنطينية عاصمة بيزنطة، واقتربوا من روما قاعدة الروم الغربية، وغدوا على مقربة من باريس حاضرة بلاد الفرنجة.

وتقدّم المسلمون بخطى وثيدة في العهد العباسي، وعلى خجل لما أهملوا من أمر دينهم، فتقدّموا من الأندلس في بلاد الفرنجة، ودخلوا أوروبا من جهة الغرب، وتوسّعوا قليلاً في بلاد الروم، وشغلهم بأسهم الذي كان بينهم، وخلودهم إلى الدنيا فتناول عليهم الصليبيون وجاءوا إليهم،

(١) سورة التوبة « براءة » : الآية ٥ .

وطرقوا عليهم الباب ، ودخلوا عليهم من أخطر الفتحات ، ووضعوا أقدامهم عند مدخل البيت وفي محوره . وكان هذا الدخول أن اهتزّت مشاعر الإيمان عند المسلمين فتحرّكت أجسامهم واتّجهت للجهاد نحو المحور فألقت الدخلاء في البحر ، وارتفعت راية الإسلام، وكانت كلمة الله هي العليا.

وتدقّق المغول من ناحية الشرق من قفار منغوليا نحو ديار الإسلام بتحريضٍ ممن أُلقي في البحر في الغرب وباندفاع ذاتي لما وُصف لهم عن بلاد المسلمين من الظلال الوارفة، والمياه الرقراقّة، والفواكه الكثيرة، وجنان الأرض، وبلدان العسل، فسأل لعابهم، فهم يعيشون في البراري الموحشة، والسهوب القاحلة يتمنون المياه الرنقة فلا يجدونها ، ولون الحضرة ، وظل المخلوقات ، ويحلمون برؤية المياه الجارية، والقطوف الدانية و... تدقّق هؤلاء المغول بوحشيةٍ فما أتوا على شيءٍ إلا جعلوه خراباً، فانتصروا بهمجيتهم ، وساعدهم على الغلبة ضعف المسلمين لتركهم الجهاد ، وتهاونهم بأمور دينهم ، فاجتاح المغول بغداد حاضرة الخلافة، وتسلّطوا على أجزاءٍ واسعةٍ من ديار الإسلام ، ومع هذه الغلبة فقد بقي المسلمون يشعرون بالاستعلاء على هؤلاء الدخلاء هذا الاستعلاء بالإيمان مادام الغرباء كافرين ، وكان لهذا الاستعلاء دوره حيث لم يلبث المغول أن دانوا بالإسلام ، وذابوا بالمجتمع الذي هم فيه، وتمثّلوا حضارة المسلمين فخضعت لهم موسكو، وعملوا على نشر الإسلام ، وفي الوقت نفسه فقد انتشر الإسلام في جنوب شرقي آسيا ، وفي شرقي إفريقيا عن طريق التجارة ، ومعرفة معاملة المسلمين ، وأخلاقهم، وأسلوب حياتهم، وطرق تفكيرهم ، ونظرتهم إلى الحياة الدنيا، والإسلام دين الفطرة فأقبل عليه سكان تلك المناطق.

ومع الضعف الذي أخذ ينخر في جسم الأمة تحرك الصليبيون نحو ديار الإسلام في سبيل احتلالها، والسيطرة عليها، واستغلال ثرواتها في سبيل إنهاكها، وسمّوا ذلك استعماراً بمعنى الإعمار من باب المغالطات، والقوي هو الذي يدون التاريخ، ويُسطر ما يريد من معلومات .

ومع الضعف الذي حلّ بالأمة فقد استعلت نفوس بعض الشعوب، وانطلقت تقاتل المستعمرين الصليبيين، ففتحت القسطنطينية، وانطلقت في أوروبا تجتاحها إقليماً بعد آخر حتى طرقت أبواب فيينا. وفي الوقت نفسه اتجهت إلى جنوبي أرض العرب لتقاتل المستعمرين هناك، وكانوا قد وصلوا إلى تلك الجهات بل أخذت تلاحقهم حتى الهند .

وفي البلدان الإسلامية التي دخلها المستعمرون رغم ما فيها من ضعفٍ فقد كانت تتحرك بعض المجموعات، وتنادي بالجهاد، وتُنازل الدخلاء، وكثيراً ما كانت تتغلب عليهم في بعض الجولات، وتُحطّم معنوياتهم في بعض المعارك، وتذللّ شموخهم في بعض المواقف، وتمرغ أنوفهم في التراب في بعض البقاع، ولولا آلية السلاح وحدثه، وكثرة الدخلاء وتعاون دولهم، ودقة المخططات، وأساليب الخداع لألقي المستعمرون في البحر كما حدث لأسلافهم. وأكثر ما كان يُرهب الأعداء، ويجعل معنوياتهم تنهار سماع صيحات التكبير من المجاهدين، بل كان كيانهم يهتزّ، وأعصابهم ترتجف، فكان ذلك أصعب عليهم من دويّ المدافع، ومن صوت تحرك الدبابات، ومن قصف الطيران اليوم، وربما خططوا للرحيل عدة مرات عندما كان يشتدّ الأمر عليهم. فصيحات الجهاد أكثر ما يخافه الأعداء.

سرّ الجهاد :

الجهاد في اللغة : جَهَد بذل الطاقة والوسع، أو هو المشقة.
والجهاد شرعاً : إذا أُطلقت كلمة الجهاد فإنما يراد بها القتال وبذل
الوسع لإعلاء كلمة الله.

قال الكاساني : « الجهاد بذل الوسع والطاعة بالقتال في سبيل الله عزّ
وجلّ، بالنفس والمال واللسان »^(١).

وقال الفقيه ابن رشد : ألا فاعلم : « أن الجهاد في سبيل الله إذا أُطلق
فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام
أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم غرون »^(٢).

فالجهاد هو استفراغ الجهد كاملاً ، والطاقة الكامنة كلها للتوجه نحو
هدفٍ معينٍ للوصول إلى غايةٍ ساميةٍ هي الجنة أو النصر والتمكين في
الأرض . واستفراغ الجهد كاملاً يجعل المسلم لا يُفكر بما حوله، ولا يحسّ
بما يجري إلى جانبه بل ينصبّ اهتمامه كله ، وتتحرّك جوارحه جميعها،
ويتجه إحساسه كاملاً نحو الهدف إنه الجنة، فهل هناك هدف أعظم من
هذا الهدف؟؟ انطلاقة نحو الفردوس الأعلى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين
أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً
عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا
ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾^(٣).

ولنر بعض الأمثلة من المؤمنين المجاهدين الذين ينطلقون كالسهم
ينظرون إلى الجنة أمامهم فيتشوّقون إليها فيزيدون الانطلاقة.

خرج رسول الله ﷺ، يوم بدرٍ إلى الناس فحرّضهم، وقال : (والذي
نفس محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير

(١) بدائع الصنائع : ٤٢٩٩ / ٩ . (٢) مقدمة ابن رشد : ٣٦٩ / ١ . (٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

مدبر، إلا أدخله الله الجنة). فقال عمير بن الحُمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قُتل (١).

إن عمير بن الحُمام هذا هو أقوى من أي بطل في الدنيا من غير المسلمين لأنه يطلب الموت الذي تفر منه الأبطال ، ويُقدم على المنون الذي يهرب منه الشجعان ، لا يرغب بالشهادة فيستسلم، ويُسلم رقبته للعدو، ولكن يندفع يعمل حصداً في رقاب الأعداء، يخوض في صفوف الخصم فيضرب من أمامه ، ويتشني يمناً فيطعن ، ويلتفت يسراً فينحر فيبتعد من أمامه المقاتلون ويفر منه الأبطال ، ويهرب القادة ، وهذا الجهاد، إنه قد باع نفسه لله، ويريد مقابلها الجنة ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (٢). وخاض المسلمون معاركهم، ومقاتلوهم جميعهم بمثل هذا المجاهد ، وانتصروا فيها كلها - بإذن الله - مع أن أعداد عدوهم تكون أضعاف عددهم . ففوة الجيش لا تقدر بعدد أفراده بل بقوة إيمانه ، وارتفاع معنوياته .

وبين المسلمين من هو أقوى ساعداً ، وأسرع اندفاعاً، وأكثر خبرةً ، وأمضى سلاحاً، وأشد عزيمةً، وأنكى مكيدةً من عمير بن الحُمام.

(٢) سورة الصف: الآية ١٠-١٢.

(١) سيرة ابن هشام.

« وقد كان فيمن شهد اليرموك : الزبير بن العوام، وهو افضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ ، فقالوا : ألا تحمل فنحمل معك ؟ فقال : إنكم لا تثبتون ، فقالوا : بلى ! فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الأعداء أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى عاد من الجانب الآخر ، وعاد إلى أصحابه ، ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى ، وجرح يومئذٍ جرحين بين كتفيه»^(١).

« وثبت يومئذٍ : يزيد بن أبي سفيان ، وقاتل قتالاً شديداً، وذلك أن أباه مرّ به ، فقال له : يا بني عليك بتقوى الله والصبر، فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين وُلّوا أمور المسلمين ؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب، ولا أجراً على عدو الإسلام منك. فقال : أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذٍ قتالاً شديداً، وكان من ناحية القلب، رضي الله عنه»^(٢).

عن أبي إسحاق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ، لا يثبت لهم العدد فواق ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمة الروم : ويلكم ؟ أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ؟ أليسوا بشراً مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أم هم ؟ قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير (٢) المصدر السابق نفسه.

أجل أنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، ونقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني^(١).

هذا الجهاد في سبيل الله، وهذا سبب خوف الأعداء منه، وقد أمرنا الله بالإعداد له مادياً من سلاح، وتدريب، وأفراد، ومعنوياً من الحث والتشجيع، والتحريض على القتال، والتذكير بآيات الله التي تدعو إلى قتال الكفار ومجاهدتهم، وإلى ما أعدّه الله للمجاهدين من دخول الجنة، ومرافقة النبيين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ومن تمكين في الأرض، ورفع في المكانة. ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾^(٣).

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وأولئك هم الخيرات وأولئك هم المفلحون﴾^(٤).

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٥).

(١) البداية والنهاية. (٢) سورة الأنفال: الآية ٦٠. (٣) سورة التوبة: الآيتان ١٩-٢٠.

(٤) سورة التوبة: الآية ٨٨. (٥) سورة التوبة: الآية ٢٤.

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾^(١).

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾^(٢).

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾^(٣).

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾^(٤).

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أد لكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾^(٥).

ويقول رسول الله ﷺ، لمعاذ بن جبل، رضي الله عنه : (ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروة سنامه)؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)^(٦).

(١) سورة التوبة : الآية ٤١ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٤٤ .
(٣) سورة النساء : الآية ٩٥ .
(٤) سورة الحجرات : الآية ١٥ .
(٥) سورة الصف : الآيات ١٠-١٣ .
(٦) أخرجه الترمذي برقم (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣).

ويقول ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)^(١).

وقد توفي ﷺ، وجيش أسامة على وشك مغادرة المدينة ، وقد عقد لواءه بيده.

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات ولم يغز ، ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبةٍ من النفاق)^(٢). وهذا يدل على أن المسلم من واجبه أن يبىء نفسه للجهاد في سبيل الله ، وقاتل الأعداء.

وقال رسول الله ﷺ، يوماً على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)^(٣).

وقال رسول الله ﷺ : (فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)^(٤).

وكان رسول الله ﷺ، يخصّص على ركوب الخيل ، والسباحة لقوة الجسم، وكذا على صنع السلاح.

وقال رسول الله ﷺ : (تكفّل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يُخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته ، بأن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ)^(٥).

وقال : (والذي نفسي بيده لولا أن رجلاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفوا عني ، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلّفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لو ددت أن أُقتل في سبيل الله ، ثم أحيأ ، ثم أُقتل ، ثم أحيأ ، ثم أُقتل ، ثم أحيأ ، ثم أُقتل)^(٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩١٠).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٩١٨).

(٦) متفق عليه .

(١) متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).

(٥) متفق عليه.

وقال (والذي نفسي بيده لا يُكَلِّمُ أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكَلِّمُ في سبيله - إلا جاء يوم القيامة ، واللون لون الدم ، والريح المسك)^(١) .

وقال : (لولا أن أشقّ على أمّتي ما تخلّفت عن سرية)^(٢) .

وقال : (ما اغْبَرَّتْ قد ما عبد في سبيل الله فتمسّه النار)^(٣) .

وقال : (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله ، أو الغدوة ، خير من الدنيا وما عليها)^(٤) .

وقال : (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها)^(٥) .

وقال : (ما أحد يدخل الجنة يحبّ أن يرجع إلى الدنيا ، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة)^(٦) .

وقال : (عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله)^(٧) .

ولكن أصحاب الهوى والمصلحة، وأعوان الأعداء يتأولون ويردّون هذا كله، سواء أكان كلام الله أم كلام رسوله، وما ردّه هذا إلا تبعاً لما تهوى الأنفس ، ومع الأسف فإن بعضهم يرّدّ هذا باسم الإسلام، بل ربما كان بعضهم يُدرّس الإسلام ، أو يرفع شعاراته ، أو يحمل عنواناً إسلامياً . يرّدّه انهمازية وهوى .

(١) متفق عليه .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه البخاري .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .
(٦) رواه البخاري .
(٧) رواه الترمذي ، والنسائي ، والدارمي ، وصححه الحاكم .

الانزامية والهوى :

لما كانت صيحات الجهاد تُرهب الأعداء الأمر الذي يجعلهم يخشون قتال أولئك الذين يرفعون تلك الصيحات ، صيحات التكبير ، لما يحملون من معنوياتٍ عاليةٍ، ويَصُدُّون عند اللقاء، ويصبرون وقت الشدّة. لذا عمل أعوان الأعداء، وعبد الطاغوت عدة وسائل لإبعاد الجهاد عن الساحة إرضاءً للسادة، وتحقيقاً للمصلحة الذاتية.

أولاً : ادعت بعض المنظمات الإسلامية أن العمل بالجهاد قد توقّف. وفي هذا الادّعاء مخالفة لقول الله تعالى ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يروكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾^(١). فقتال الأعداء إذن قائم .

وأقوالهم مخالفة لقوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود والانسارى حتى تتبع ملتهم ﴾^(٢). فكراهية الأعداء دائمة .

ومخالفة لقوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾^(٣).

ومخالفة لقوله تعالى : ﴿ فإذا انسَلَخَ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾^(٤).

فالجهاد ماضٍ : ١ - مادام يوجد مشرك على ظهر الأرض .

٢ - مادام الإسلام لم يعمّ الأرض، ولم تُطبّق الشريعة في أنحاء المعمورة .

٣ - مادام يوجد ظلم على وجه الأرض .

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(٤) سورة التوبة : الآية ٥ .

٤ - مادام اليهود والنصارى يجهدون لفتنة المسلمين ولا يرضون دون ذلك.

وفي هذا الادعاء في توقف الجهاد مخالفة لحديث رسول الله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)^(١).

وعن أنس، رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ: (... والجهاد ماضٍ منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال)^(٢).

فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ولا يمكن لهيئةٍ ولا لغيرها مها حملت من عناوين، أو رفعت من شعاراتٍ إسلاميةٍ، أن تعلن وقف الجهاد فقول الله هو الذي يتبع، وفعل رسول الله ﷺ، يُصدّقه.

ثانياً: زعم بعضهم أن أسس الجهاد هو جهاد النفس، وتحمل الأذى، والصبر على الشدة، وكلمة الحق، وتبيان السبيل، وأما القتال فهو عند ظهور السبب فقط، كتناول الدواء عند ظهور المرض.

« إن من أنواع الجهاد التي شرعت مع فجر الإسلام، مواجهة رسول الله ﷺ، المشركين، ومن ورائه أصحابه، بدعوتهم إلى الحق، وتفنيد ما كانوا يعكفون عليه من تقاليد الآباء والأجداد.. وإن من أهم أنواعه ثباته وثباتهم معه على الصدع بكلمة الحق، مهما جرّ ذلك عليهم من أنواع الشدة والإيذاء.. وإن من أهم أنواعه مُضيهم في التبصير بكتاب الله، والتعريف به، والتنبيه إلى إخباراته وأحكامه، دون مبالاةٍ بالأخطار التي

(١) أخرجه مسلم برقم (١٩٢٣)، وهو متفق عليه من حديث المغيرة، وحديث معاوية.

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٢٥٣٢).

تحقق من جرّاء ذلك بهم ... وكيف لا وقد سمّاه الله تعالى جهاداً في صريح بيانه، عند ما قال لرسوله وهو لا يزال في مكة : ﴿ فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ كما قال ابن عباس وغيره. وتأمّل في تسمية النهوض بهذا الواجب ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ لتعلم مركزه الكبير المتميز بين أنواع الجهاد. وكل هذه الأنواع التي تعدّ أسس الجهاد وجوهه، والتي لاشأن لها بالقتال ، هو المعني بكلمة ﴿ جاهدوا ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا، ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . فقد علمت أن رسول الله ﷺ، إنما خوطب بهذا الكلام قبل هجرته إلى المدينة المنورة.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً قول رسول الله ﷺ : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائرٍ) وقوله عليه الصلاة والسلام : (أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله تعالى).

بل إنك إذا تأملت، أدركت أن الجهاد ، بهذا المعنى الذي استقر في مكة منذ فجر الإسلام ، هو المصدر والمعين لما قد تفرّع وتكاثر ، من بعد ، من أنواع الجهاد الأخرى .

بل ما أشبه هذا المصدر بالجذع الثابت من الشجرة في سائر الظروف والأحوال ، وما أشبه النوع القتالي، بكل أشكاله وأحواله بالأغصان التي تأتي وتذهب بين الحين والآخر ، طبقاً لما تقتضيه عوارض الظروف والأسباب... أو قل : ما أشبه الجهاد المكّي المتمثل في الأنواع التي ذكرناها بالغذاء الذي لا يستغني عنه الإنسان في أي حالٍ . وما أشبه الجهاد القتالي الذي شرع لدى ظهور أسبابه بالدواء الذي إنما يلجأ إليه فراراً من عوارض الأوجاع والأمراض ^(١) .

(١) الجهاد في الإسلام - الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

١- إن الكاتب يُغالط هنا فيتكلم عن الجهاد في مكة عندما كان المسلمون أقليةً، وسيطر المشركون من قريشٍ على بلدهم التي هم فيها، ويُطنب في جهاد الأقليات ويختار الألفاظ الجميلة حتى يرسخ هذا المعنى في نفس القارىء، ثم يُعمّم هذا المعنى على حياة المسلمين جميعها، وشتان بين الجهاد في مكة حيث المسلمون أقليةً، والمشركون يتحكّمون في المجتمع، ويتغطرسون، وبين الجهاد في المدينة حيث المسلمون الأكثرية ولهم السيادة، بل شرع القتال في المدينة، وعلى المسلمين الأخذ به، ولم يشرع في مكة، فما كان على المسلمين أن يُفكروا به، أو يلجؤوا إليه، وهو ما ساروا عليه.

٢- تناسى الكاتب آيات القتال، وضرب عنها صفحاً عمداً. وكلها تحث على القتال، وتأمربه، وتدعو إلى استعمال السيف لجهاد المشركين، ومقارعة الظالمين، وضرب الذين يقفون في وجه الدعوة، وذلك حتى يعمّ الإسلام، وينتهي الظلم، ويزول المشركون. فالمجتمع المسلم لا يوجد فيه مشرك واحد: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد..﴾^(١). ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إنا قلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾^(٢). ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾^(٣).

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم

(١) سورة التوبة: الآية ٥. (٢) سورة التوبة: الآيتان ٣٨-٣٩. (٣) سورة التوبة: الآية ٤١.

الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴿١﴾ .

وهل بعد هذه الأوامر من الله والايضاحات مجال للتأويل ، والمغالطة .
والدليل التاريخي على ذلك أن الأقاليم التي دخلها المسلمون فاتحين لم
يبق فيها مشرك واحد ، أما الأقليات الضالة المارقة فقد ظهرت فيما بعد
عندما غفل المسلمون عن تطبيق شرع الله جل وعلا . ولكن الأقاليم التي
لم يصل إليها الفتح الإسلامي، وإنما انتشر فيها الإسلام عن طريق الدعوة
وعن طريق الإقبال على الدين لما لمسوا في الإسلام من المزايا والانسجام
مع الفطرة البشرية، ولم يُطبّق فيها شرع الله تعالى ففي هذه الأقاليم يوجد
وثنيون .

وأما الاحتجاج بالآية الكريمة ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من
الغبي ... ﴾ أي لا إكراه على الإسلام بالنسبة إلى الذين يؤمنون بالله
ويعترفون بالخالق، وهم أهل الكتاب من يهود ونصارى فيما إذا وافقوا على
الجزية . أما المشركون فلا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهم بين الارتحال
أو السيف أو الإسلام .

« وقيل : إن الآية ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ منسوخة ، لأن النبي ﷺ ، قد
أكره العرب على دين الإسلام^(٢) ، وقاتلهم ، ولم يرض منهم إلا الإسلام ،
قاله سليمان بن موسى ، قال : نسختها ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار
والمنافقين ﴾ . وروي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين .

(١) سورة التوبة : الآية ٨٨ .

(٢) لم تتجاوز دولة رسول الله ﷺ ، جزيرة العرب . وقد أكره المشركين ، ولم يتعرض لليهود ، وكانت
لهم تجمعات في اليمن ، وخيبر و... كما لم يتعرض للنصارى في نجران ، وقد بقي هؤلاء وأولئك حتى
أخرجهم عمر ، رضي الله عنه . ولما امتدت ديار الإسلام خارج جزيرة العرب أكره الخلفاء المسلمون
المشركين على الإسلام ، سواء أكانوا عرباً أم عجماً من قريش أو من غيرها .

وقيل : ليست بمنسوخة، وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام، فهم الذين نزل فيهم ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ... ﴾^(١) هذا قول الشعبي، وقتادة، والحسن، والضحاك. والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق. قالت : أنا عجوز كبيرة ، والموت إلي قريب ، فقال عمر : اللهم اشهد، وتلا : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾.

ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مقلتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوّده، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾. قال أبو داود : والمقلات التي لا يعيش لها ولد . في رواية : إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه ، وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ من شاء التحق بهم ، ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير ، والشعبي، ومجاهد إلا أنه قال : كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. قال النحاس : قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده ، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي.

قال السدي : نزلت الآية في رجلٍ من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان ، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت ، فلما أرادوا

(١) سورة التحريم : الآية ٩ .

الخروج أتهم ابنا الحسين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ، ومضيا معهم إلى الشام ، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ ، مشتكياً أمرهما ، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ ، من يردّهما ، فنزلت : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب ، وقال : (أبعدهما الله هما أول من كفر) فوجد الحسين في نفسه على النبي ﷺ ، حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جلّ ثناؤه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية . ثم نسخ ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة « براءة » .
والصحيح في سبب قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي على ما يأتي في « النساء » بيانه إن شاء الله تعالى . وقيل : معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبراً مكرهاً ، وهو القول الخامس . وقول سادس ، وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إن كانوا كباراً ، وإن كانوا مجوساً صغاراً أو كباراً أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام ، لأن من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين ، ألا ترى أنهم لا تؤكل ذبائحهم ، ولا توطأ نساؤهم ، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما ، ويستقذروهم المالك لهم ، ويتعذّر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإيجاب . ونحو ما روى ابن القاسم عن مالك . وأما أشهب فإنه قال : هم على دين من سباهم ، فإذا امتنعوا أُجبروا على الإسلام ، والصغار لا دين لهم فلذلك أُجبروا على الدخول في دين الإسلام لثلا يذهبوا إلى دين باطلٍ . فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرهم على الإسلام سواء كانوا عرباً أم عجماً قريشاً أو غيرهم»^(١) .

(١) تفسير القرطبي .

والخلاصة فإن المشركين يُجبرون على الإسلام وإلا فالسيف أما أهل الكتاب فيؤدّون الجزية ولا يكرهون في الدين.

٣- إن القتال يقتضي وجود قوة، ويلزم استعداد دائم، واحتياط للأمر، أما البيان، والصبر على الشدة، وتحمل الأذى، وهذا لا يحتاج إلى قوة لأن القتال أمر مستبعد، ويبقى المسلمون ضعفاء يسيطر عليهم الأعداء، ويسلّط عليهم الطواغيت، وهذا ما يريده عبدة الطاغوت، والذين يسعون وراء المكانة والشهرة، فإن لم يصلوا إلى ما يطمعون فيه بالأوقات العادية لوجود أهل العلم وذوي المكانة، فإنهم يصلون في مرحلة الطغيان لغياب العلماء وذوي الشرف فيبرز عندها المتزلفون، وأعدوان الأعداء، وتبدأ المغالطات في التاريخ بل وفي قضايا الدين - مع الأسف-، ويحرص الخصم على هذا أيضاً إذ تقلّ هيبة العلماء، وتنزل مكانتهم في المجتمع.

ثالثاً: رأى الانهزاميون قوّة الأعداء، وضعف المسلمين في هذه المرحلة، فضعّفوا نفسياً ودلّوا، فصعّب عليهم الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وقاتل الأعداء، وتفوّق المسلمين لذا زعموا أن القتال في الإسلام لم يكن هجومياً أبداً، بل كان دفاعياً، ولم يكن المسلمون ليتدّوا بالقتال بل يعملون على حماية ثغورهم، ويردّون عنها الأعداء، ويقومون بردّ الفعل حمايةً لأنفسهم، وأعراضهم، وأملاكهم، ويسعون دائماً للوصول إلى موانع طبيعية تحول بينهم وبين اعتداء الجوار، تدفع عنهم الأذى، وتقيهم شرّ الأعداء.

وإن الواقع والتاريخ ليُكذّب هذه المزاعم، وهذه الأقوال الانهزامية،

فما أن وصل رسول الله ﷺ، إلى المدينة مهاجراً، ورتب الجبهة الداخلية ونظّمها حتى أخذ يبعث السرايا، ويقود الغزوات تستطلع أرض المعركة، المرتقبة، وتعرّف على ساحات القتال المحتملة، وتقيم الصلوات مع قبائل وسكان تلك الجهات ليكونوا إلى جانبهم إذا احتدم القتال أو يقفوا على الحياد على أقل احتمال . بل لقد بعث رسول الله ﷺ سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة على مقربة من مكة لتعرف أخبار قريش، وترصد تحركاتها وذلك في وقت مبكر إذ كان ذلك في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة أي قبل معركة بدر الكبرى بشهرين . وتوفي رسول الله ﷺ، وجيش أسامة على أهبة الانطلاق من المدينة لغزو أطراف الشام التي تخضع للروم ، وقد عقد رسول الله ﷺ، اللواء لأسامة بيده الشريفة .

وانطلقت جيوش الفتح في العهد الراشدي للجهاد في سبيل الله، وقاتل الذين يقفون في وجه الدعوة حتى انتشر الإسلام في أرجاء واسعة، وخنق الفرس والروم الذين عملوا على دعم المرتدين ، وحاولوا الوقوف في وجه الدعوة، ولم تلبث أن زالت دولة الفرس ودان أهلها بالإسلام ، وخرست دولة الروم أجزاءً واسعةً من المناطق التي كانت تخضع لسلطانها، وهاتان الدولتان هما أكبر دول العالم يومذاك وأقواها دون منازعٍ .

وتابع الجهاد سيره في العهد الأموي، وكان القتال على مختلف الجبهات، وتجاوز المسلمون مناطق منيعةً ولم يتخذوها حواجز تقيهم شرّ الجوار ، ولم يتحصّنوا فيها ضد الأعداء، فقد اجتازوا ذرا جبال طوروس بينهم وبين الروم ، وانتقلوا عبر البحر إلى الأندلس ، وركبوه إلى الجزر البعيدة و ... وهكذا كان الجهاد في سبيل الله .

إن من مهمة المسلمين الأساسية في الحياة إبلاغ الدعوة إلى الناس بالبيان، والحكمة، والموعظة الحسنة، وهذه الدعوة لا بد لها من قوةٍ تحميها من الأعداء، وتقاتل من يقف في وجه حملها وإبلاغها إلى الناس كافةً. وهذه القوة يجب أن تكون جاهزةً دائماً، مستعدةً دائماً، والإعداد لها باستمرار حتى يعمّ الإسلام الأرض، وينتهي الظلم، ويزول الشرك، وهذا هو الجهاد المفروض على الأمة المسلمة.

وإن الدعوة من غير قوةٍ تحميها، وتصدّ عنها، وتُقاتل من يقف في وجهها، لن تنطلق من أماكنها، بل سيعمل الكافرون على خنقها، ويتسلّط الطغاة على رجالها حتى تموت أو يتبّع أهلها ملّة اليهود والنصارى كما يحلم أهل الكتاب... وهذا ما يعمل له أعوان الأعداء، والانهمزيون، والمرجفون سواء أكانوا يدرون أو لا يدرون. ويكون المسلمون قد أهملوا دعوتهم، وقصّروا في واجبهم، ولم يؤدّوا مهمتهم في الحياة، ويكون هذا بسبب أولئك الذين يرون أن الدعوة بالبيان، والصبر فقط، أو يزعمون أن القتال غير مطلوب إلا بظروف، أو يدّعون أن القتال للدفاع عن النفس، وحماية الحدود فقط، وسواء أكان هؤلاء الأعداء يحملون صفة العلم أو غيره... فهم في الواقع غير ذلك، وإن تظاهروا بالدعوة، ونصّبوا أنفسهم لتعليم الإسلام، ووقفوا أمام العامة يتباكون على الدين...، وهم أمام الأعداء والطغاة يتزلقون ويرفعون شعار: « أن الدعوة لا تقتل إلا بالدعوة » كما ضربت الاشتراكية بالاشتراكية، ولا يفلّ الحديد إلا الحديد.

الفصل الثالث:

جهاد القادة والموجهين

إن للقادة والموجهين دوراً كبيراً في الجهاد فإضافةً إلى قيادة المقاتلين ، والسير أمامهم في المعارك فهم يُنظّمون الأمور، ويرسمون الخطط، ويضعون الوسائل المضادة لخطط العدو ، وهذا يقتضي معرفة أهداف الخصم، ووسائله.

وقد عُلم من قواعد الدين أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد . ولا يخفى أنه لا تتم الحماية من الأعداء، وتجنب شرورهم إلا بمعرفة مقاصدهم ، ودراسة أوضاعهم وأهدافهم البعيدة وخاصةً الموجهة ضدّ المسلمين ، فإن مخططاتهم قد بُنيت على المكر والخداع ، وعدم الوفاء بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم ، فما هي إلا وسيلة من وسائل الخداع، وأسلوب من أساليب المكر التي يلجؤون إليها، كي يذّلوا الشعوب الضعيفة وخاصةً المسلمين منها، ليستثمروا خيراتها ، ويبيعوا لأهلها منتجاتهم، وحتى يُفكروا سكانها ، ويُجهّلوا أبناءها لتضعف المعرفة عندهم، وتزيد الحاجة لديهم ، فيمكن تنصيرهم - حسب زعم الأعداء - وهذا ما يُر كزون عليه في بلاد المسلمين عامةً، وخاصةً في جنوب شرقي آسيا، وقد أعلنوا صراحةً عن مخططاتهم هذه

في أندونيسيا حيث ساد الفقر ، وعمّ الجهل ، وتسلّط الخصم ، واستشرى الظلم .

وإن جهل المسلمين بوسائل الأعداء ومخططاتهم نقص كبير ، وضرر خطير ، وإن معرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفع عظيم للمسلمين ، ودفع لشراً الأعداء والتخفيف منه ، حيث يعرف المسلمون كيف يدروون خطر الأعداء ، ويردّون كيدهم في نحرهم ، ويُبطلون مخططاتهم ، ولهذا كان من واجب القادة والموجهين التعرّف على ذلك ، والوقوف التام على أحوال الأعداء .

إن إحكام السياسة الداخلية لا يتمّ إلا بإحكام السياسة الخارجية لما بينهما من ارتباطٍ من النواحي الفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، فإن معرفة أهداف العدو ومخططاته وإطلاع الرعية عليها يزيد من المعنوية ، فيعرفون لماذا يُقاتلون ، ويكونون أقرب إلى النصر - بإذن الله - ويزيد من ارتباط القاعدة بالقيادة ، وفي الوقت نفسه يعمل المسلمون جميعاً لردّ مخططات الخصم وإفشالها ، ويزداد الوعي .

غير أن المغرضين وأصحاب الأهواء يُغالطون ، ويُزيّنون الكلام ، ويُتمّقون العبارات ، ويُؤكّدون على أمورٍ وأحكامٍ مسلّمٍ بها ، ولا خلاف عليها ، ويُركّزون على ذلك حتى يسير معهم القارىء بجوارحه كلها ، ويوجّهون بعدها على نقاطٍ أخرى ، وإن كانت دون الأولى إلا أنها أساسية ، ويُلقون عليها كلام عدم المبالاة ، وكأنها تُخالف الأولى ، ولا تتفق معها أبداً . يقول أحدهم : « فمن كان موقناً - كما هو شأن كل مسلم - بأن للإسلام مصادره الثابتة المتفق عليها ، وأن لهذه المصادر ثمرات

يانعة ، تتمثل في الأحكام الفقهية التي جمعها العلماء الأعلام من أدلتها التفصيلية، بجدارةٍ ودقّةٍ ، ثم اكتسبت الإجماع - أو اتفاق الجمهور - فلسوف يُدعن لهذه الأحكام ، معرضاً عن تصوراته وأفكاره الشاردة وراء سورها.

أما من كان لا يُقيم وزناً لهذه الأحكام ولا لمصادرها ، ومن ثم فهو لا يرى الإسلام أكثر من مجموعة الأفكار التي يتبناها الناس عنه ، مهما تعارضت أو اتفقت، فما هو من الإسلام الذي أنزله الله على عباده في شيءٍ، ولعله لا ينتمي إليه من قريبٍ أو بعيد . إذ هو لا يوقن بشيءٍ أنزله الله على الناس ليفهموه فيُنَفِّذوه. وإنما يوقن بأفكاره التي يحاول أن يبعثها بين الناس ، ثم يُلزمهم بها باسم الإسلام ، الذي هو في اعتباره ليس إلا ظلّاً تابعاً لتلك الأفكار .

أما نحن ، فلا نعلم أن هناك إسلاماً يتمثل في مجموعة الأفكار البشرية ، وتصوراتهم الذاتية المتناقضة . بل لا سبيل للمنطق أن يوقن بمثل هذا اللغو .

وإنما الإسلام فيما عرفناه وجزمنا به ، انصياع الإنسان لخطاب الله عزّ وجلّ ، تدبّراً وفهماً ، ثم سلوكاً وتطبيقاً ، وخطابه موجود ومسموع ، ومعانيه ثابتة ومعروفة . ومن ثم فليس للفكر الإنساني أمامه إلا دور الفهم والاستيعاب .

ثم إن هذه الشكوى المتواضعة التي تنم عن صدقٍ كبيرٍ وتحرقٍ على الحق ، من أخي الأستاذ جودت لفتت نظري إلى جانبٍ آخر من المشكلة ، هو مدى انصراف المثقفين الإسلاميين عن الدراسة العلمية (الأكاديمية)

للإسلام، والمتمثلة في دراسة قواعده الفقهية الكلية، وأحكامه الفقهية الجزئية، وقواعده الأصولية المتمثلة في منهج تفسير النصوص، والاستعاضة عن ذلك بقراءة الكتب الفكرية، أو الاطلاع على المراجع التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية، وهذه المراجع لا تعود على القارئ بشيء من القواعد والأحكام الشرعية قط، كما هو واضح ومعلوم.

إنك لن تجد بين عشرة من مجموع المثقفين الإسلاميين، أكثر من اثنين يدرسون الإسلام من خلال مصادره العلمية التي ألمحنا إليها، والثمانية الآخرون إنما يدرسونه من خلال كتبه الفكرية أو المراجع الاجتماعية الأخرى. فكيف يتأتى لمن كانت هذه هي بضاعته العلمية عن الإسلام أن يقف في وجه التحديات المتنوعة التي يواجهون بها الإسلام والمسلمين، فضلاً عن أن يُحطّمها ويفتح السبل المشرعة إلى تجاوزها؟.

والغريب أن في هؤلاء المثقفين من يحاول فعلاً أن يجد في الوقائع التاريخية أو التراجم الشخصية أو التراث الأدبي، ما يبصر بحقيقة حكم شرعي أو يحلّ مشكلةً أثرت حول حكم شرعي، فكيف يتأتى ذلك؟ كيف يتأتى لواقع الحياة الإنسانية المليء بالخطأ والصواب، والفياض بالطاعات والمعاصي أن يكون مصدر حكم شرعي، أو مفتاح حلّ لمشكلة فقهية؟

بل إن في هؤلاء المثقفين أيضاً من يحاول أن يثير الريب والشبهات في البنيان الكلي لنظام الإسلام وشرعته، من خلال استعراض وقائع الناس والموروث بأحداث التاريخ أو تراجم بعض الرجال... فكأن الإسلام هو عصارة واقع الناس وأحوالهم بما فيها من خيرٍ وشرٍّ وحلوٍ ومرٍّ^(١).

(١) الجهاد في الإسلام ص ١٤-١٦ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

هناك ملاحظات على هذا الكلام

١- إن الاهتمام بدراسة العلوم الإسلامية الأساسية والعمل على ترسيخ العقيدة قبل كل شيء نقطة جوهرية، ولا يختلف مسلمان في ذلك. ولكن هناك ما يدل على عدم مصداقية الكاتب في أنه كان يُسمّي الذين يقولون هذا القول بـ: « السفليون » ويعني « السلفيون » وإن كتبه لتطفح مع الأسف - بهذا الاصطلاح. فكلامه للتجارة وللمغالطة.

٢- إن الخلاف بينه وبين هؤلاء الذين يُسمّيهـم « المثقفون الإسلاميون » يجب ألا يدخل مجال الكتب، ونتيجة هذا الخلاف فهو يحمل عليهم ، بل ويفتري حيث لا يوجد مسلم في الدنيا يقول : إن القواعد والأحكام الشرعية تُؤخذ من المراجع التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية وهو يكتب بحرية ودعمٍ ولا يوجد من يردّ عليه للظروف القائمة.

ولا يملك أي رصيدٍ في مصداقية قوله هذا، إذ حرص أن يكون من بين هؤلاء الذين يُسمّيهـم بالمثقفين الإسلاميين على أن يكون من بين القادة ، فلم يحرص أحد عليه، فاتجه لمعاداتهم والكلام عليهم، وإذا وجد المجال افتري.

٣- إن إهمال معرفة التاريخ والاجتماع والأدب بهذه الصورة التي يراها الكاتب هو أمر غير مقبول ، ويخالف الكلام الذي يدعو له مرحلياً ، فالقرآن الكريم قصّ لنا قصص الأنبياء، ومواطنهم، وبعض جوانب من حياتهم الاجتماعية ، فدراسة دعوة الأنبياء وخبرهم مع قومهم جزء من التاريخ ، كما هي دراسة السيرة النبوية. وطُلب منا أخذ العبرة ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ... ﴾^(١).

(١) سورة يوسف : الآية ١١١ .

كما طُلب من الإنسان السير في الأرض ، والنظر فيها ، والتأمل ، وأخذ العبرة ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(١) .
وقد تكرر طلب السير في الأرض في كتاب الله اثنتي عشرة مرة لأخذ العبرة.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى خبر القتال بين الفرس والروم ﴿ الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾^(٢) . فهل كان هذا النزول للتوجيه نحو التاريخ والاعتبار أم غير ذلك؟ .

وعندما كان رسول الله ﷺ ، يستمع إلى الشعراء : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ... ويقول لهم : (اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل)^(٣) .

وعن البراء قال : قال النبي ﷺ ، لحسان : (اهجهم أو هاجهم وجبريل معك)^(٤) .

وعن عائشة ، رضي الله عنها، قالت : كان رسول الله ﷺ ، يضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، أو قال : ينافح عن رسول الله ﷺ ، ويقول رسول الله ﷺ : (إن الله يؤكّد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله)^(٥) .

(١) سورة الروم : الآية ٩ . (٢) سورة الروم : الآيات ١-٥ .

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٤٩٠) في فضائل الصحابة . باب حسان بن ثابت .

(٤) متفق عليه . (٥) أخرجه الترمذي برقم (٢٨٤٩) في الأدب .

فهل كان صحابة رسول الله ﷺ، يحفظون هذا الشعر الذي يقوله :
حسان بن ثابت، أو كعب بن مالك، أو عبدالله بن رواحة وغيرهم، وما
يردّ عليهم أم يمتنعون عن ذلك؟ وكيف إذن وصل إلينا هذا الشعر؟
وكما كان حسان شاعر رسول الله ﷺ، كان ثابت بن قيس خطيب
رسول الله ﷺ.

ولكن أصحاب الأهواء والمصالح، وعبد الطاغوت يُفآخرون بما
تعلموا، ويتاجرون به ، ويعيبون على ما تعلم غيرهم ، وينتقدونه ، ولو كان
فيه الخير ، وتعلمه السلف من قبل . ويطالبون أن يكفوا عن الاطلاع على
أي شيءٍ من الثقافة ، وخاصةً يجب أن لا يقبل أحد من المسلمين على
شيءٍ مما يضعه الأعداء أو الطغاة ضد المسلمين لأن هذا يثير المسلمين
فيهبوا للجهاد ، وعندها تنزعز مراكز الطغاة، وتزلزل مواقع أصحاب
الهوى لأنهم بطائن الظالمين، وقد خلت لهم الساحة بغياب أهل العلم
بُعداً ، وقهراً، وانتهاءً ، فسرحت البطائن ومرحت ، وتعاملت ، وأدّعت أنها
فعلت ما لم تفعله الأوائل.

oboi.kandi.com

الفصل الرابع:

جهاد المستضعفين

يقصد بالمستضعفين هنا المسلمون الذين لا يجدون أرضاً يعيشون فيها بطمأنينة لنقمة مجتمعهم المخالف لهم بالعقيدة ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . ولم يجدوا مجتمعاً آخر يقبلهم لظروف اجتماعية أو سياسية ، فأقاموا في منطقةٍ منفردين ، فسمح لهم موقع منطقتهم هذه بالثأر من الذين أخرجوهم من ديارهم ، والانتقام من الذين ألحقوا بهم الظلم ، فقاموا يُغيرون على قوافلهم ، ويقعدون لهم كلَّ مرصدٍ ، ويُقاتلونهم ، فقتلهم هذا جهاد في سبيل الله .

بعد صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ ، ومشركي قريش ، رجع رسول الله ﷺ ، إلى المدينة . وكان من جملة شروط الصلح ، على أنه من أتى محمداً من قريشٍ بغير إذنٍ وليه رده عليهم . « فلما قدم رسول الله ﷺ ، المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية ، وكان ممن حُبس بمكة ، فلما قدم على رسول الله ﷺ ، كتب فيه أزهر بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله ﷺ ، وبعث رجلاً من بني عامر بن لؤي ، ومعه مولى لهم ، فقدا على رسول الله ﷺ ، بكتاب الأزهر والأخنس ، فقال رسول الله ﷺ :

(يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك) قال : يا رسول الله ، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ قال : (يا أبا بصير ، انطلق ، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً) .

فانطلق معها ، حتى إذا كان بذي الحليفة ^(١) ، جلس إلى جدار ، وجلس معه صاحبه ، فقال أبو بصير : أصارم سيفك هذا يا أبا بصير ؟ فقال : نعم ؛ قال : انظر إليه ؟ قال : انظر ، إن شئت . فاستلّه أبو بصير ، ثم علاه به حتى قتله . وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ ، وهو جالس في المسجد ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، طالعاً ، قال : (إن هذا الرجل قد رأى فرعاً) ؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ، قال : (ويحك ! مالك) ؟ قال : قتل صاحبكم صاحبني . فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف ، حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، أو يُعبث بي . فقال رسول الله ﷺ : (ويل أمه مُسعر حرب لو كان معه رجال) .

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص ^(٢) ، من ناحية ذي المروة ، على ساحل البحر ، بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام . وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ ، لأبي بصير : (ويل أمه مُسعر حرب لو كان معه رجال) فخرجوا إلى أبي بصير

(١) ذو الحليفة : قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ، وهي ميقات أهل المدينة .

(٢) العيص : هو موضع في بلاد بني سليم به ماء ، يقال له : ذبان العيص .

بالعيص، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً ، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحدٍ منهم إلا قتلوه ، ولا تمرّ بهم غير إلا اقتطعوها ، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ، تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فأواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة^(١).

لم يكن رسول الله ﷺ، إلا ليطلب من أبي بصير العودة إلى قومه، لأنه قد أعطى قريشاً عهداً بذلك، ولم يكن رسول الله ﷺ، لينقض عهداً. ولو أن الأمر كان صعباً في دفع مسلم إلى المشركين ، غير أن الالتزام بشرع الله أولى، وهو تنفيذ العهد ، ويظهر الالتزام بالمواقف الصعبة يقول تعالى :
﴿ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾^(٢). ويقول سبحانه:
﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ﴾^(٣).

ويقول عز وجل : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾^(٤).

ويقول جل ثناؤه ﴿ .. والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾^(٥).

وما كان لأبي بصير إلا أن يطيع رسول الله ﷺ، ويُنفذ ما يؤمر به وهو ما فعله إذ امتثل، وسار مع العامري والمولى الذي معه، وقدّر الموقف، وعرف أنه لو وصل إلى مكة لناله من المشركين أذى كثير لا يطيقه ، وسيقتل في النهاية ، وذلك تحذيراً وتهديداً للذين احتبسوا في مكة كي لا يسلك أحد مسلك أبي بصير ، ومن تقدير الموقف هذا فقد قتل أبو بصير الرجل

(١) سيرة ابن هشام. (٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٢. (٣) سورة النحل : الآية ٩١.

(٤) سورة الإسراء : الآية ٣٤. (٥) سورة البقرة : الآية ١٧٧.

العامري ، ورجع إلى رسول الله ﷺ، تقديراً أن رسول الله ﷺ، قد وُفي ذمته، وأرسله مع العامري والمولى تنفيذاً لصلح الحديبية، وظن أنه بإمكانه البقاء في المدينة مع إخوانه المسلمين ، فقال لرسول الله ﷺ : وقت ذمتك، وأدى الله عنك ، وأسلمتني، ولكن رسول الله ﷺ ، لا يقبل هذا، ويُعدّ في مثل هذه الحال كأنه هو الذي حرّض أبا بصيرٍ على ما قام به. ورسول الله ﷺ، لا يمكن إلا أن يفِي بعهدة الذي أبرمه في الحديبية ، ولكنه في الوقت نفسه لم يُلْم أبا بصير على فعلته التي فعلها، وعدم اللوم إشارةً إلى الرضا بذلك، وقال له : (ويل أمّه مُسعر حربٍ لو كان معه رجال) ، وكأن هذا الكلام تنبيه إلى عدم العودة إلى مكة، وإلى ضرورة وجود رجال معه ليحمي نفسه، ويُؤدّب قريشاً، وهذا ما فهمه أبو بصير، فذهب إلى (العيص)، وهذا ما فهمه المسلمون الذين احتبسوا في مكة ، فكان الواحد منهم يتخلّص من حبسه بوسيلةٍ من الوسائل، ويلتحق بأبي بصيرٍ حتى شكّلوا قوّة أقضت مضاجع قريش. ولو وصل حديث رسول الله ﷺ، مع أبي بصير إلى مشركي قريش لفهموا منه ذلك، ولكن حُجب عنهم.

وإن سكوت رسول الله ﷺ، عن أفعال المسلمين الذين في (العيص) دليل الرضا أيضاً حيث لم يطلب منهم الكفّ عن تلك الأعمال ، وكأنه عدّهم جماعةً خاصةً تتصرّف من ذاتها، وإن كانوا من المسلمين. وقد انتهت قريش إلى ذلك، وطلبت من رسول الله ﷺ، أن يضمّ إليه جماعة (العيص) في المدينة ليكونوا ضمن المسلمين ملتزمين بصلح الحديبية، وبقوا يسألونه الرحم، وأنهم ليسوا بحاجةٍ إليهم حتى آواهم، وقدموا عليه المدينة ، وانتهت قضية أبي بصير .

غير أن الذين يتعاطفون مع مشركي قريش يرون أن الخطأ الكبير كان

من جانب أولئك الذين احتبسوا في مكة من المسلمين ، إذ تقول قريش :
إن هذه الفئة قد خرجت على أعراف المجتمع ، وقد نُصحت فأصرت على
خروجها ، ودُعيت إلى العودة لدين آبائها فأبت إلا اتباع محمدٍ ، فحاولنا
الضغط عليها فما ازدادت إلا تمسكاً بما آمنت ، فما كان من قريش إلا أن
عذبت أفراد هذه الفئة ، وأذاقتها مرّ العذاب ، وحبستها ، واستمرّ
الخارجون في إصرارهم حتى مات بعضهم تحت العذاب . فغير المؤمنين
يقبلون كلام المشركين ، والمغفلون وأصحاب الأهواء لا يسمعون إلا كلام
قريش المستبدة بالسلطة ، المهيمنة بالقوة . فبطائن المتسلطين يسمعون من
طرفٍ واحدٍ ، وفي الوقت نفسه يحملون حقداً لسبب من الأسباب على
الطرف الآخر . فلم يسمعوا أبداً استفزازات المتسلطين ، واضطهاد
المظلومين ، وملاحقة المساكين ، والاعتداء حتى على أسر المسلمين ،
والقيام بأعمال إجرامية ونسبتها إلى الطرف الآخر ، وصوت المتسلطين
مسموع ووسائل الإعلام بيدهم ، ولاصوت للأبرياء المتهمين ، ولا بواكي
لهم ، فأين العدل؟ وأين الإنصاف والسماع من الطرفين عن قرب؟ .
زار أحد المتعاملين المشركين الجزائر ، وفي جعبته أحقاد مكدّسة ، فأثنى
في كلامه على أحد المتسلطين من غير المسلمين عقيدةً ، وبالغ ، وأطنب
حتى أثار حفيظة المستمعين وجميعهم من المسلمين ، فقال أحدهم
للمحاضر وهو يعلم أن المتكلم غير مؤمن بما يقول : يحشر المرء مع من
أحب ، حشرك الله وإياه . فازداد الحقد حقداً ، فما ذكر بعدها المسلمون في
الجزائر أمامه إلا وصبّ جام غضبه عليهم ، ووجّه إليهم مختلف
الاتهامات ، متنازلاً عن الأخلاق الإسلامية .

obekandl.com

الفصل الخامس:

الاستشهاد

هو أن يلقي المرء بنفسه في مكانٍ خطيرٍ لا يتوقع الخروج منه ، ولا يأمل بالنجاة منه، في سبيل نصرة المسلمين، أو إنقاذهم من مهلكةٍ محتملةٍ، أو التخفيف عنهم من أذىٍ يُصيبهم بإرهاب العدو وإخافته، يتغني من ذلك الشهادة، ويطلب الآخرة، لا يريد سوى ذلك شيئاً.

١- خرج المسلمون لقتال المرتدين ، ومشى البراء بن مالك، رضي الله عنه، تحت لواء خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، الذي سار إلى جهة اليمامة، يُقاتل مسيلمة الكذاب، ويُعيد بني حنيفة إلى صوابهم، وكان بنو حنيفة يومئذٍ كثيرين يزيد عددهم على أربعين ألفاً.

التقى الطرفان ، ودارت رحى الحرب، وهُزم المسلمون ، ووصلت جماعة الكذاب إلى فسطاط خالد. ثم تداعى المسلمون ، فقال ثابت بن قيس :
بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إني أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء - يعني أهل اليمامة - وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين -
ثم جالد بسيفه حتى قُتل. واندفع زيد بن الخطاب فقاتل حتى قُتل ،

وأصابت العرواء البراء بن مالك، وكانت تأخذه إذا حضر الحرب، إذ يرتعد، ويقع على الأرض، ثم لا يلبث أن ينتفض، ويهتّب كالأسد. وقد قام بعد لحظة من وقوعه على الأرض، ووثب، وأرعد، وقال: أين يا معشر المسلمين؟ أنا البراء بن مالك، هلموا إليّ. وفاءت فئة من الناس، فقاتلوا بني حنيفة حتى غلبوهم - بإذن الله - وخلص المسلمون إلى مُحكّم اليمامة، وهو مُحكّم بن الطفيل، الذي قاتل قتالاً شديداً، فرماه عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم فوضعه في نحره فقتله. ثم زحف المسلمون حتى ألبسوا بني حنيفة إلى الحديقة، حديقة الموت، فتحصّنوا فيها. فنظر البراء فرأى أن الحصار سيطول، وبنو حنيفة في حصنهم، وفي الحديقة من الأقوات ما يكفي أياماً، والأعداء في ديارهم تأتيهم الأمداد، وتصل إليهم النجدات، والمسلمون بعيدون عن ديارهم، يصعب عليهم وصول المدد، لذا لا بدّ من عمل حاسم، فربما تعب المسلمون من الحصار، وقلّت عندهم الأزواد، وخرج عليهم بنوحنيفة، ونالوا منهم. فقال البراء: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة. فقال الناس: لا تفعل يا براء، فقال: والله لتطرّحني عليهم فيها. فاحتملوه على ترس، على أسنة رماحهم، وألقوه في الحديقة، فاقترح إليهم، وشدّ عليهم، وقاتل حتى فتح باب الحديقة، ودخل المسلمون عليهم، وقاتلوهم حتى قُتل مسيلمة الكذاب عدوّ الله، قتله وحشي - قاتل الحمزة بن عبدالمطلب - ورجل من الأنصار.

وجرح البراء يؤمئذٍ بضعةً وثمانين جرحاً، لذلك أقام عليه خالد بن الوليد شهراً يُداوي جراحه. واستشهد أكثر من ستائة من المسلمين، وقُتل من بني حنيفة سبعة آلاف في فضاء عقرباء، ومثلهم في حديقة

الموت. ودخل المسلمون بلاد اليمامة كلها.

فعمل البراء بن مالك ، رضي الله عنه ، عملية استشهادية ، إذ ألقى وسط حشودٍ من الأعداء مستعدين للقتال ، متوثبين للطعان، فنجا - بإذن الله - وأدى مهمته إذ فتح باب الحديقة للمسلمين، وبالتقدير المادي البشري لا يمكنه النجاة.

٢- وحاصر المسلمون مدينة « تُسْتَرَّ » وقائدهم أبو سبرة بن أبي رهم، ابن عمّة رسول الله ﷺ، وكان أبو موسى الأشعري على أهل البصرة، والنعمان بن مُقَرَّن على أهل الكوفة . وطال الحصار ، وكانت المعارك سجالاً، وقد ضاق الأمر على المؤمنين، وقال المسلمون : أقسِم يا براء على ربك ليهزمنهم لنا، فقال : اللهم اهزمهم لنا ، واستشهدني . فهزمهم - بإذن الله - حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم اقتحموها عليهم، وأرزوا إلى مدينتهم، وأحاطوا بها، فبيناهم على ذلك، وقد ضاقت بهم المدينة، وطالت حربهم، خرج إلى النعمان رجل فاستأمنه على أن يدلّه على مدخلٍ يُؤتون منه، وهو مجرى الماء. فاستشار القائد ، وندب الناس. وكان ممن دخل المجرى مجزأة بن ثور فلما خرج ، وكان أول الداخلين ، شدخوه بصخرة فقتل، فخرج البراء بن مالك ، فقاتل الأعداء حتى قُتل، قتله الهزُمزان، وقد شاغل الخصم فخرج الناس. وفتح الله على المسلمين.

ودخول مجرى الماء عملية استشهادية ، فيها مخاطرة ، ويتوقع الشهادة كل من دخل ، لأنهم يخرجون فرداً فرداً ، إضافةً إلى أنها قد تكون حيلةً وخدعةً من العدو، وبالواقع فقد قُتل مجزأة بن ثور أول الداخلين. ولكن الذين دخلوا إنما كان دخولهم طلباً للشهادة في سبيل الله.

٣- استمرّ حصار دمشق عدة أشهر، وجاء وقت البرد، وكان قاسياً، فصعب القتال، ولا بدّ من حسم الموقف، فاستدعى خالد بن الوليد بعض صناديد المسلمين ممن معه، وأحضر جنده عند الباب «باب شرقي» الذي كان عليه، وقال لهم: إذا سمعتم تكبيرنا فوق الأسوار فارقوا إلينا. ثم قطع الخندق هو وأصحابه سباحةً، وقد وضعوا قرباً في أعناقهم تُساعدهم على السباحة، وأثبت خالد وصحبه السلام على شرفات السور، وصعدوا عليها، فلما صاروا أعلى السور رفعوا أصواتهم بالتكبير لإرهاب العدو، ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوةً، واندفع الجند من الباب إلى الداخل، وفتحت دمشق.

فهذه العملية استشهادية حيث فيها مجازفة، إذ ألقى خالد ومن معه بأنفسهم إلى داخل المدينة بين أعداء فيمكن أن لا يخرجوا فهم بضعة أفراد بين عشرات الألوف، كما أنهم محصورون عن بقية الجند، وثيابهم مليئة بالماء يصعب الحركة والقتال فيها، وفي وقت شديد البرد، ولكنهم يطلبون الشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله. فكان لهم ما أرادوا.

وهناك عمليات استشهاد كثيرة في التاريخ الإسلامي وخاصة في صدر الإسلام أيام صحابة رسول الله ﷺ، الذين هم قدوتنا.

واليوم إذا جاء عدوّ، واقتحم منطقة من بلاد المسلمين، وتحكّم بها، وبأهلها، فسلب أرضهم، وأخذ أملاكهم، وتسلب على العباد، فاضطهد المسلمين، وليس لديهم من قوة تطرد الغاصب، وتُرهب الطاغية المتسلط، والمسلمون من حولهم، لا يدعمون إخوانهم، ولا يمدّون لهم يد العون، ولا يسمحون للأفراد بالجهاد لمساعدة المستضعفين، بل قد ألغوا الجهاد،

فَعِنْدَهَا يُمْكِنُ لِأَبْنَاءِ الْمُنْطَقَةِ الْمَغْصُوبَةِ أَنْ يَقُومُوا بِعَمَلِيَّاتٍ فِدَائِيَّةٍ يُضَحِّحُونَ بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ إِرْهَابِ الْعَدُوِّ ، وَجَعَلَهُ يَعْمَلُ عَلَى الرَّحِيلِ نَتِيجَةَ الْخَوْفِ ، وَنَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ اسْتِشْهَادِيَّةً ، وَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ قَامُوا بِهَا فِي عِدَادِ الشَّهَدَاءِ ، وَمِنْ الْبِرَّةِ الْأَخْيَارِ ، مَا دَامُوا قَدْ ضَحَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَطَرْدِ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَلِنَصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ لِتَكُونَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا . الْمَهْمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مُؤْمِنًا ، قَدَّمَ نَفْسَهُ يَبْتَغِي ثَوَابَ اللَّهِ ، لِإِرْهَابِ عَدُوِّ اللَّهِ ﴿ وَأَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾ ^(١) . فَهَذَا عَمَلٌ فِدَائِيٌّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَنَرْجُو لِصَاحِبِهِ الشَّهَادَةَ ، وَقَدْ قَدَّمَ نَفْسَهُ ، وَسَيُوفَّى لَهُ أَجْرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِنْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتُ الْفِدَائِيَّةُ اسْتِشْهَادِيَّةٌ ، وَلَكِنْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ يَسْمَوْنَهَا انْتِحَارِيَّةً أَيْ أَنَّ هَذَا الْفِدَائِيَّ قَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ ، يُمَثِّلُونَهَا بِذَلِكَ الَّذِي أَحَبَّ فِتَاءٌ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا فَانْتَحَرَ . وَذَلِكَ الَّذِي ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِكَثْرَةِ الْهَمَمِ ، وَزِيَادَةِ الدُّيُونِ ، وَضَيْقِ ذَاتِ الْيَدِ ، وَقَلَّةِ الْإِخْوَانِ فَانْتَحَرَ ، وَقَدْ يَأْسُ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ . فَالْمُنْتَحِرُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ ، وَقَدْ يَأْسُ مِنَ الرَّحْمَةِ ، فَتَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ فِي سَبِيلِ دُنْيَا . وَالشَّهِيدُ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، رَغِبَ فِي ثَوَابِ اللَّهِ ، فَقَدَّمَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، إِرْضَاءً لِلَّهِ .

فَالْمَهْمُ النِّيَّةُ فَمَنْ قَدَّمَ نَفْسَهُ لِلدُّنْيَا ، فَهُوَ وَمَا قَدَّمَ لَهُ . وَمَنْ قَدَّمَهَا لِلَّهِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يُوفِّيهِ أَجْرَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ . عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ،

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

رضي الله عنه، قال : سمعت النبي ﷺ، يقول : (يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١).

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيش الكعبة ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم) . قالت : قلت : يا رسول الله ، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم؟ . قال : (يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم)^(٢).

عن أم سلمة ، رضي الله عنها، قالت : قال رسول الله ﷺ : (يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث . فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم) فقلت : يا رسول الله ! فكيف بمن كان كارهاً؟ قال : (يُخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته)^(٣).

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت : سئل رسول الله ﷺ، عن الهجرة، فقال : (لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا)^(٤).

ويعتقد المرجفون العمليات الاستشهادية بأنه يُقتل فيها أناس أبرياء لأعلاقة لهم بالحرب ، فإثمهم على من كان السبب .

ولكن هؤلاء الذين يسمّونهم أبرياء إنما هم من المستعمرين الغاصبين الذين دخلوا الديار بالقوة، وطرّدوا أهلها، وأقاموا مكانهم، وأخذوا أملاكهم، واعتدوا على الأعراض . وإن لم يكونوا هم أنفسهم ، فهم من

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم .

أبنائهم وذرايرهم ، فهم محاربون وإن لم يحملوا السلاح .
ثم إن الحروب الحديثة كلها من هذا النوع فقصف الطيران هل يصيب
المحارب فقط ، ويستثنى الآمن؟ وضرب المدفعية هل يحدد البريء من
المقاتل؟ وهل تميّز هذه الحروب بين حملة السلاح وبين الأطفال والنساء؟ .
فالمهم بالعملية الاستشهادية أن ترهب العدو ، وتجعله يرحل أو على
الأقل يُغيّر من سياسته التعسفية . وأن يكون العمل خالصاً لله ، وصاحبه
مؤمناً يبتغي بفعله ثواب الله ورضاه .

ويُعدّ بعضهم هذه الحركات الفدائية الاستشهادية إلقاء بالنفس إلى
التهلكة ، ويستشهدون بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١) .

أولاً : قال الفخر الرازي : قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾
اختلف المفسرون فيه ، فمنهم من قال : إنه راجع إلى نفس النفقة ، ومنهم
من قال : إنه راجع إلى غيرها ، أما الأولون فذكروا فيه وجوهاً .

الأول : أن لا ينفقوا في مهمات الجهاد أموالهم فيستولي العدو عليهم
ويهلكهم ، وكأنه قيل : إن كنت من رجال الدين فأنفق مالك في سبيل
الله ، في طلب مرضاته ، وإن كنت من رجال الدنيا فأنفق مالك في دفع
الهلاك والفرد عن نفسك .

الثاني : إنه تعالى لما أمره بالإنفاق نهاه عن أن ينفق كل ماله ، فإن إنفاق
كل المال يقضي إلى التهلكة عند الحاجة الشديدة إلى المأكل والمشروب
والملبوس ، فكان المراد ما ذكره في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٥ .

يقتروا وكان بين ذلك قواماً^(١)، وفي قوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾^(٢).

وأما الذين قالوا : المراد منه غير النفقة فذكروا فيه وجوهاً :

الأول : أن يُجِلُّوا بالجهاد فيتعرَّضوا للهلاك الذي هو عذاب النار فحثَّهم بذلك على التمسك بالجهاد وهو كقوله تعالى : ﴿ ليهلك من هلك بينة ﴾^(٣).

الثاني : المراد من قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ أي لا تقتحموا في الحرب بحيث لا ترجون النفع، ولا يكون لكم فيه إلا قتل أنفسكم فإن ذلك لا يحلّ، وإنما يجب أن يقتحم إذا طمع في النكاية وإن خاف القتل، فأما إذا كان آيساً من النكاية، وكان الأغلب أنه مقتول فليس له أن يقوم عليه، وهذا الوجه منقول عن البراء بن عازب. ونقل عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال في هذه الآية : هو الرجل يستقل بين الصفيين، ومن الناس من طعن في هذا التأويل، وقال : إن هذا القتل غير محرم، واحتجّ عليه بوجوه .

أ - روي أن رجلاً من المهاجرين حمل على صفّ العدو فصاح به الناس : فألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري : نحن أعلم بهذه الآية، وإنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ، ونصرناه، وشهدنا معه المشاهد، فلما قوي الإسلام، وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا ومصالحنا، فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد .

ب - روى الشافعي، رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ، ذكر الجنة،

(٢) سورة الإسراء : الآية ٢٩ .

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٧ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

فقال له رجل من الأنصار : أرأيت يا رسول الله إن قُتلتُ صابراً محتسباً؟ قال عليه الصلاة والسلام : (لك الجنة) فانغمس في جماعة العدو فقتلوه بين يدي رسول الله . وأن رجلاً من الأنصار ألقى درعاً كانت عليه حين ذكر النبي ، عليه الصلاة والسلام، الجنة، ثم انغمس في العدو فقتلوه .

ح - روي أن رجلاً من الأنصار تخلف عن بني معاوية فرأى الطير عكوفاً على من قُتل من أصحابه، فقال لبعض من معه : سأ تقدّم إلى العدو فيقتلونني، ولا أتخلف عن مشهدٍ قتل فيه أصحابي ، ففعل ذلك ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال فيه قولاً حسناً .

د - روي أن قوماً حاصروا حصناً، فقاتل رجل حتى قُتل، فقيل : ألقى بيده إلى التهلكة، فبلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ذلك، فقال : كذبوا أليس يقول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾^(١) . ولمن نصر ذلك التأويل أن يجيب عن هذه الوجوه فيقول : إنما حرمتنا إلقاء النفس في صف العدو إذا لم يتوقع إيقاع نكايّة منهم، فأما إذا توقع فنحن نجوز ذلك، فلمَ قُلتم إنه يوجد هذا المعنى في هذه الوقائع .

الثالث : في تأويل الآية أن يكون هذا متصلاً بقوله : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ﴾^(٢) أي فإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه فإن الحرمات قصاص، فجازوا اعتداءهم عليكم ولا نحملنكم حرمة الشهر على أن تستسلموا لمن قاتلكم فتهلكوا بترككم القتال فإنكم بذلك تكونون ملقين بأيديكم إلى التهلكة .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

الرابع : في التأويل أن يكون المعنى : أنفقوا في سبيل الله، ولا تقولوا :
إننا نخاف الفقر إن أنفقنا فنهلك، ولا يبقى معنا شيء، فنهوا أن يجعلوا
أنفسهم هالكين بالإنفاق، والمراد من هذا الجعل والإلقاء الحكم بذلك،
كما يقال : جعل فلان فلاناً هالكاً، وألقاه في الهلاك إذا حكم عليه بذلك.

الخامس : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة هو الرجل يصيب الذنب
الذي يرى أنه لا ينفعه معه عمل فذلك هو إلقاء النفس إلى التهلكة،
فالحاصل أن معناه النهي عن القنوط من رحمة الله لأن ذلك يحمل الإنسان
على ترك العبودية والإصرار على الذنب.

السادس : يحتمل أن يكون المراد : وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا ذلك
الإنفاق في التهلكة والإحباط، وذلك بأن تفعلوا بعد ذلك الإنفاق فعلاً
يُحبط ثوابه إما بتذكير المنة، أو بذكر وجوه الرياء والسمعة، ونظيره قوله
تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾^{(١)،(٢)}.

ثانياً : وقال أبو محمد عبد الحق بن عطية : وروي عن أبي أيوب
الأنصاري أنه كان على القسطنطينية فحمل رجل على عسكر العدو ،
فقال قوم : ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب : لا . هذه الآية نزلت
في الأنصار حين أرادوا - لما ظهر الإسلام - أن يتركوا الجهاد ، ويعمروا
أموالهم، وأما هذا فهو الذي قال الله فيه : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه
ابتغاء مرضات الله ﴾^(٣).

وقال حذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة،
وجمهور الناس : المعنى : لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله،

(٢) تفسير الفخر الرازي.

(١) سورة محمد : الآية ٣٣.

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٠٧. وروى الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي.

وتخافوا العيلة ، فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفق. وقال قوم : المعنى ، لا تقنطوا من التوبة.

وقال البراء بن عازب ، وعبيدة السلماني : الآية في الرجل يقول : قد بلغت في المعاصي ، فلا فائدة في التوبة ، فينهمك بعد ذلك.

وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زادٍ ، وقد كان فعل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق ، أو الكون عالة على الناس^(١).

ثالثاً : وقال القرطبي : فيه ثلاث مسائل :

الأولى : روى البخاري عن حديفة : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(٢) قال : نزلت في النفقة . وروى يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران ، قال : غزونا القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبدالرحمن ابن الوليد ، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس : مه مه ، لا إله إلا الله ، يلقي بيديه إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : سبحان الله ! نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه ، وأظهر دينه ، قلنا : هلم نُقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله ، عز وجل ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية . والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نُقيم في أموالنا ونصلحها ، وندع الجهاد . فلم يزل أبو أيوب مجاهداً في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية ، فقبره هناك . فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله ، وأن الآية نزلت في ذلك ، ورُوي مثله عن حديفة ، والحسن وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٥ .

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران هذا الخبر بمعناه، فقال : « كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس، وقالوا، سبحان الله ! يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال : يا أيها الناس إنكم تتأولون هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ، يردّ عليه ما قلنا : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(١). فكانت التهلكة القيام على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم. قال أبو عيسى : حديث حسن غريب صحيح. وقال حذيفة بن اليمان، وابن عباس، وعكرمة، وعطاء، ومجاهد، وجمهور الناس : المعنى : لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة، فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفقه. وإلى هذا المعنى ذهب البخاري إذ لم يذكر غيره، والله أعلم. قال ابن عباس : أنفق في سبيل الله، وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقّص^(٢)، ولا يقولن أحدكم : لا أجد شيئاً. ونحوه عن السدّي : أنفق ولو عقلاً، ولا تلقي بيدك إلى التهلكة، فتقول : ليس عندي شيء. وقول ثالث قاله ابن عباس، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٥.

(٢) المشقّص : نصل عريض، أو سهم فيه نصل، يرمى به الوحش.

إليه ناس من الأعراب حاضرين بالمدينة ، فقالوا : بماذا نتجهّز ! فوالله مالنا زاد ، ولا يُطعمنا أحد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني تصدّقوا يا أهل الميسرة في سبيل الله، يعني في طاعة الله ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ يعني : ولا تُمسكوا بأيديكم عن الصدقة فتهلكوا ؛ وهكذا قال مقاتل . ومعنى قول ابن عباس : ولا تُمسكوا عن الصدقة فتهلكوا : أي لا تمسكوا عن النفقة على الضعفاء ، فإنهم إذا تخلّفوا عنكم غلبكم العدو فتهلكوا، وقول رابع، قيل للبراء بن عازب في هذه الآية : أهل الرجل يحمل على الكتيبة؟ فقال : لا . ولكنه الرجل يصيب الذنب فيُلقي بيديه، ويقول : قد بلغت في المعاصي، ولا فائدة في التوبة، فييأس من رحمة الله فينهمك بعد ذلك في المعاصي . فالهلاك : اليأس من رحمة الله، وقاله : عبّيدة السلماني . وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زادٍ ، وقد كان فعل ذلك قوم فأدّاهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو يكون عالية على الناس . فهذه خمسة أقوال . و ﴿ سبيل الله ﴾ هنا : الجهاد ، واللفظ يتناول بعد جميع سبله . والباء في ﴿ بأيديكم ﴾ زائدة، التقدير : تلقوا أيديكم . ونظيره : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ . قال المبرد : ﴿ بأيديكم ﴾ أي بأنفسكم، فعبرَ بالبعض عن الكل، كقوله : ﴿ فيما كسبت أيديكم ﴾ ، ﴿ بما قدمت يداك ﴾ . وقيل : هذا ضَرْبٌ مِثْلٌ ، تقول ؛ فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم ، لأن المستسلم في القتال يُلقى سلاحه بيديه، فكذلك فعل كل عاجزٍ في أي فعلٍ كان ، ومنه قول عبد المطلب : والله إن إلقاءنا بأيدينا للموت لعجز . وقال قوم : التقدير لا تلقوا أنفسكم بأيديكم، كما تقول : لا تفسد حالك برأيك . والتهلكة (بضم اللام) مصدر من هَلَكَ يَهْلِكُ هَلَاكًا وَهْلُكًا وَتَهْلُكَةً ، أي لا تأخذوا

ففيها يهلككم، قاله الزجاج وغيره ، أي إن لم تنفقوا عصيتم الله وهلكتم ، وقيل : إن معنى الآية : لا تمسكوا أموالكم فيريثها منكم غيركم، فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم ، ومعنى آخر : لا تمسكوا فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة. ويقال : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ يعني : لا تنفقوا من حرام فيردّ عليكم فتهلكوا. ونحوه عن عكرمة قال : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ قال : ﴿ لا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾. قال الطبري : قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ عام في جميع ما ذكر لدخوله فيه ، إذ اللفظ يحتمله.

الثانية : اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب وحمله على العدو وحده، فقال القاسم بن مخيمرة ، والقاسم بن محمد ، وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوة، وكان لله بنية خالصة ، فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . قيل : إذا طلب الشهادة ، وخلصت النية فليحمل ، لأن مقصوده واحد منهم ، وذلك بين في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾. وقال ابن خُوَيز مَنَدَاد : فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنه أن سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يُقتل ولكن سُينكى نكاية أو سيبيلى أو يُؤثر أثراً ينتفع به المسلمون فجائز أيضاً . وقد بلغني أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نفرت خيل المسلمين من الفيلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلاً من طينٍ وأنس به فرسه حتى أَلْفه، فلما أصبح فرسه لا ينفر من الفيل فحمل على الفيل الذي كان يقدمها، فقبل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضير أن

أُقتل ويُفتح للمسلمين. وكذلك يوم اليامة لما تحصّنت بنو حنيفة بالحديقة، قال رجل من المسلمين^(١): ضعوني في الحجة ، وألقوني إليهم، ففعلوا ، وقاتلهم وحده ، وفتح الباب.

قلت : ومن هذا ماروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أرأيت إن قُلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً؟ قال : (فلك الجنة). فانغمس في العدو حتى قُتل . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ، أُفردَ يوم أُحُدٍ في سبعةٍ من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال : (من يردهم عنا وله الجنة) أو (من هو ريفي في الجنة) فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتل . فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة. فقال النبي ﷺ : (ما أَنْصَفْنَا أصحابنا). هكذا الرواية « أنصفنا » بسكون الفاء ، « أصحابنا » بفتح الباء، أي لم ندهم على القتال حتى قُتلوا. وروي بفتح الفاء ورفع الباء، ووجهها أنها ترجع لمن فرّ عنه من أصحابه - والله أعلم - . وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجلٍ من المشركين وهو وحده، لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاةٍ ، أو نكايةٍ في العدو ، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عرّض نفسه للتلف في غير منفعةٍ للمسلمين ، فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعةً للمسلمين على بعض الوجوه . وإن كان قصده إرهاب العدو، وليعلم صلابة المسلمين في الدين فلا يبعد جوازه. وإذا كان فيه نفع للمسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهمين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ الآية، إلى غيرها من آيات المدح التي مدح

(١) هو البراء بن مالك ، أخو أنس بن مالك .

الله بها من بذل نفسه. وعلى ذلك ينبغي أن يكون حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه متى رجا نفعاً في الدين فبذل نفسه فيه حتى قُتل كان في أعلى درجات الشهداء. قال الله تعالى: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾. وقد رُوي عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه قال: (أفضل الشهداء حمزة ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطانٍ جائرٍ فقتله).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وأحسنوا﴾ أي في الإنفاق في الطاعة، وأحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم. وقيل ﴿وأحسنوا﴾ في أعمالكم بامثال الطاعات، روي ذلك عن بعض الصحابة^(١).

رابعاً: وقال الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا حكام، عن عمرو ابن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله.

حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا هشيم، قال: أخبرنا إسماعيل ابن أبي خالد، عن عكرمة، قال: نزلت في النفقات في سبيل الله، يعني قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا هشيم، قال: أخبرنا هشام، عن ابن سيرين، قال: سألت عبيدة السلماني عن ذلك، فقال: هو الرجل يذنب الذنب فيستسلم، ويلقي بيده إلى التهلكة، ويقول: لا توبة له، يعني قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن.

قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله جلّ ثناؤه أمر بالإِنفاق في سبيله بقوله : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وسبيله : طريقه الذي شرعة لعباده وأوضحه لهم . ومعنى ذلك : وأنفقوا في إعزاز ديني الذي شرعته لكم ، بجهد عدوكم الناصيين لكم الحرب على الكفر بي ، ونهاهم أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، فقال : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ .

وذلك مثل ، والعرب تقول للمستسلم للأمر : « أعطى فلان بيديه » وكذلك يقال للمُمكن من نفسه مما أُريد به : « أعطى بيديه » .

فمعنى قوله : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ، ولا تستسلموا للهلكة ، فتعطوها أزمّتكم فتهلكوا . والتارك النفقة في سبيل الله عند وجوب ذلك عليه مستسلم للهلكة بتركه أداء فرض الله عليه في ماله . وذلك أن الله جلّ ثناؤه جعل أحد سهام الصدقات المفروضات الثمانية « في سبيله » فقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ - التوبة ٦٠ - فمن ترك إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه ، كان للهلكة مستسلماً ، ويديه للتهلكة ملقياً .

وكذلك الأيس من رحمة الله لذنب سلف منه ، ملق بيديه إلى التهلكة ، لأن الله نهى عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَأْتُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ - التوبة ١٧٧ - يوسف ٨٧ - .

وكذلك التارك غزو المشركين وجهادهم في حال وجوب ذلك عليه ، في حالة حاجة المسلمين إليه ، مضيع فرضاً ، ملق بيده إلى التهلكة .

فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ .

التهلكة ﴿﴾، ولم يكن الله عزّ وجلّ خصّ منها شيئاً دون شيءٍ، فالصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا، والاستسلام للهلكة - وهي العذاب - بترك ما لزمنا من فرائضه. فغير جائزٍ لأحدٍ منا الدخول في شيءٍ يكرهه الله منا، مما نستوجب بدخولنا فيه عذابه.

غير أن الأمر وإن كان كذلك ، فإنه الأغلب من تأويل الآية : وأنفقوا أيها المؤمنون ، في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها، فتهلكوا باستحقاقكم - بترككم ذلك - عذابي . كما :

حدثني المثني ، قال : حدثنا أبو صالح ، قال : حدثنا معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ، قال : التهلكة عذاب الله.

قال أبو جعفر : فيكون ذلك إعلماً منه لهم - بعد أمره إياهم بالنفقة - ما لمن ترك النفقة المفروضة عليه في سبيله، من العقوبة في المعاد.

فإن قال قائل : فلما جاء إدخال « الباء » في قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ وقد علمت أن المعروف من كلام العرب « ألقيت إلى فلان درهماً » دون « ألقيت إلى فلان بدرهم ».

قيل : قد قيل إنها زيدت نحو زيادة القائل « الباء » في قوله : « جذبت بالثوب، وجذبت الثوب » و « تعلّقت به وتعلّقت » و « تنبت بالدهن » - المؤمنون ٢٠ - وإنما هو تنبت الدهن.

وقال آخرون : « الباء » في قوله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ ، أصل للكنية. لأن كل فعل واقع كني به، فهو مضطر إليها. نحو قولك في رجل

« كَلَّمْتَهُ » فأردت الكناية عن فعله، فإذا أردت ذلك قلت : « فعلت به » قالوا : فلما كان « الباء » هي الأصل ، جاز إدخال الباء وإخراجها في كل « فعل » سبيله سبيل كُنَيْتِهِ .

وأما ﴿ التهلكة ﴾ فإنها « التفعلة » من « الهلاك »^(١) .

خامساً : قال ابن كثير : قال البخاري : حدثنا إسحاق ، أخبرنا النضر ، أخبرنا شعبة عن سليمان ، سمعت أبا وائل عن حذيفة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ قال : نزلت في النفقة ، ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبي معاوية عن الأعمش مثله ، قال : وروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّي ، ومقاتل بن حيان نحو ذلك ، وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران ، قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرّقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ، صحبتنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ، ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ، ونصره ، حتى فشا الإسلام ، وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين ، والأموال ، والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيها فنزل فينا ﴿ وأنفقوا في سبيل ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد . رواه أبو داود ، والنسائي ، وعبد بن حميد في تفسيره ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن

(١) تفسير الطبري :

مردويه ، والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدرکه ، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب به ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، وقال الحاكم : على شرط الشيخين ، ولم يُخرِّجَاه . ولفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران : كنا بالقسطنطينية ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى أهل الشام رجل : يريد « فضالة بن عبيد » فخرج من المدينة صف عظيم من الروم ، فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه ، فقالوا : سبحان الله ، ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : يا أيها الناس ، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل ، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه ، قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها ، فأنزل الله هذه الآية . وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق السبيعي ، قال : قال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني ، أكنت ألقى بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ وإنما هذه في النفقة ، رواه ابن مردويه ، وأخرجه الحاكم في مستدرکه ، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق به ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يُخرِّجَاه ، ورواه الترمذي ، وقيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن البراء ، فذكره وقال بعد قوله : ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب .

وقال ابن أبي حاتم : حدَّثنا أبي ، حدَّثنا أبو صالح ، كاتب الليث ، حدَّثني الليث ، حدَّثنا عبدالرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي بكر بن نمير بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن عبدالرحمن بن

الأسود بن عبد يغوث ، أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزد
شنوءة ، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ،
ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فردّه ، وقال عمرو :
قال الله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله
تعالى : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ . قال :
ليس ذلك في القتال ، إنما هو في النفقة ، أن تمسك بيدك عن النفقة في
سبيل الله ، ولا تلق بيدك إلى التهلكة .

قال حماد بن سلمة ، عن داود ، عن الشعبي ، عن الضحاك عن بن أبي
جبير ، قال : كانت الأنصار يتصدّقون ، وينفقون من أموالهم ، فأصابتهم
سنة ، فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله ، فنزلت : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى
التهلكة ﴾ .

وقال الحسن البصري : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ، قال : هو
البخل .

وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير ، في قوله : ﴿ ولا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ، أن يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يُغفر لي ،
فأنزل الله : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب
المحسنين ﴾ رواه ابن مردويه ، وقال ابن أبي حاتم ، وروي عن عبيدة
السلماني ، والحسن ، وابن سيرين ، وأبي قلابة نحو ذلك ، يعني نحو قول
النعمان بن بشير ، أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغفر له ،
فيلقي بيده إلى التهلكة ، أي يستكثر من الذنوب فيهلك . ولهذا روى علي

ابن أبي طلحة، عن ابن عباس : التهلكة عذاب الله .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير ، جميعاً حدّثنا يونس ، حدّثنا ابن وهب ، أخبرني أبو صخر عن القرظي محمد بن كعب، أنه يقول في هذه الآية : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال : كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر ، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ .

وقال ابن وهب أيضاً : أخبرني عبدالله بن عياش عن زيد بن أسلم في قول الله : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ وذلك أن رجالاً يخرجون في بعوثٍ يبعثها رسول الله ﷺ ، بغير نفقة، فيما أن يقطع بهم ، وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا من المشي . وقال لمن بيده فضل : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ . ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾^(١) .

فهذا كلام أعلام المفسرين :

الطبري : المتوفى عام ٣١٠ هـ .

ابن عطية : المتوفى عام ٥٤٢ هـ .

(١) تفسير القرآن العظيم ؛ ابن كثير .

الفخر الرازي : المتوفى عام ٦٠٧هـ.

القرطبي : المتوفى عام ٦٧١هـ.

ابن كثير : المتوفى عام ٧٧٤هـ.

ويفهم من كلام هؤلاء المفسرين أن هذه الآية ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ لم تنزل في الرجل الذي يقتحم العدو ، وحده ، والعدو كثير ، ولا بالرجل يلقي بنفسه بين الأعداء في سبيل إرهابهم وإخافتهم ، أو تقديم عملٍ لنصرة المسلمين ، كما فعل البراء بن مالك ، رضي الله عنه ، بطلبٍ من المسلمين لإلقائه بين بني حنيفة في الحديقة ، وقد لبى المسلمون للبراء طلبه بعد إصرارٍ فقاتل الأعداء ، وتمكّن من فتح باب الحديقة ، ودخل المسلمون ، ونصرهم الله . وإن هذا الإلقاء قد دبّ الذعر في نفوس الأعداء إذ شعروا أن المسلمين لا يهابون الموت بل يُلقون بأنفسهم بين الأعداء ، ويقتحمون عليهم ، فهؤلاء يصعب قتالهم ، لأن الأعداء حريصون على الحياة ، وهي ما لا يحرص عليه المسلمون .

وكما فعل البراء بن مالك أيضاً يوم فتح « تستر » إذ دخل ومجزأة بن ثور من مجرى المياه ، واستشهد مجزأة عندما وصل إلى العدو ، وخرج البراء فقاتل ، واستشهد ، وخرج المسلمون بعدها ، وكان نصر الله ، وفتحت المدينة .

وكما فعل خالد بن الوليد وصحبه إذ صعّدوا على أسوار دمشق بالحبال ، وهبطوا على الروم ، وقتلوهم ، وتمكّنوا من فتح الباب ، واندفع المسلمون إلى الداخل ، وكان نصر الله .

فإذا ألقى المسلم بنفسه مجاهداً بها في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا، فنرجو من الله أن يكون هذا المسلم شهيداً. وكذا المسلم المؤمن الذي يُفجّر نفسه اليوم في سبيل إرهاب أعداء الله ونصرة المسلمين، فإذا كانت هذه نيته فهو في سبيل الله، ونرجو أن يكون من الشهداء.

أما الآية ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فقد نزلت بشأن الذين يتركون النفقة في سبيل الله ، أو يتركون الجهاد في سبيله ، أو يُقدمون على ذنبٍ فيياسون من مغفرة الله ، فيغرقون أنفسهم في المعاصي والآثام. أما إلقاء النفس في سبيل الله، محتسباً ثواب الله، ونصرة المسلمين لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله - إن شاء الله - شهيداً ، وعمله استشهاد - والله أعلم -.

الفصل السادس:

النفاق المعاصر

لم يكن في مكة في صدر الإسلام قبل الهجرة منافقون، لأن المسلمين كانوا مستضعفين وليس لأحد حاجة أن يتزلف لهم أو يُظهر النفاق حرصاً على رضاهم، أو خوفاً منهم، فلما قامت دولة الإسلام في المدينة وقويت شوكتها نجم النفاق.

بعد معركة بدر التي نصر الله فيها المسلمين على عدوهم، ومكّن لهم أجمع المنافقون كيدهم، وأعلن عبدالله بن أبيّ بن سلول أن الأمر قد توجه، فأظهر إسلامه، ودعا أتباعه لإظهار إسلامهم، واستمر عملهم الخفي لتهديم المجتمع الإسلامي، ونسف جذوره، فقد شعروا بمصيرهم، وهم على علم بما يُبطنون من حقدٍ، وبما تخفي نفوسهم من شرٍّ، فالإيمان لم يدخل قلوبهم، وبقي في نفوسهم شيء يريدون أن يفعلوه ضد المسلمين عندما تنهياً لهم الفرص، وقد أظهروا الإسلام خوفاً وتخطيطاً، وعملوا بجانب اليهود عداوةً ومكراً.

وقوي الإسلام وانتشر، وزال النفاق واندرثر إذ لم يعد المسلمون يخشون منافقين، ولم تعد هناك ضرورة للسكوت عنهم، وبلغت القوة مداها، ثم أخذت تتراجع حتى عاد الضعف، ولم يعد أحد يخشى الضعف لينافق لأتباعه، ولكن إذا كان الضعف المادي هو المسيطر، إلا أن الإسلام هو

السائد - والله الحمد - وهو ثابت في النفوس ، وإن كان لا يُطبَّق بالشكل المطلوب، إلا أن الراعي والرعية تتهيَّب الخلاف، وتريد الظهور بالعمل والتقيد به. وهنا يبرز نوع من النفاق يُظهر الراعي على نوع من الالتزام، وأن ما يرسم له يتفق مع الخط السليم، وهذا لا يستطيع أن يقدمه إلا رجل على درجة من العلم، فيغالط الناس بما يتكلم به ويسجله، لذا فقد احتضن بعض الرعاة أفراداً من الذين يُغالطون ، ورفعوهم ، وفسحوا المجال لهم للحديث والكتابة ، والتصريحات، وحلّ المشكلات ، وجعلوهم بطائن لهم، ومهدوا لهم الطرق ، ومدّوا لهم الجسور ، وكانت لهم حصانة.

أشاعت البطائن أن اليهود شكّلوا مع المهاجرين ومع الأنصار مجتمعاً متماسكاً متآلفاً إثر الهجرة النبوية ، ولم يذكروا خيانات اليهود للمسلمين، من محاولة قتل رسول الله ﷺ، وتشكيل الأحزاب ضد المسلمين في المدينة، ودعم المنافقين و... وذلك تبريراً للسياسة الدولية التي تعمل للصالح بين اليهود الدخلاء وأهل البلدان المجاورة في هذه الأيام .

وعدّ بعض هذه البطائن الفئات الإسلامية الملتزمة خارجةً على النظام، مخلّةً بالأمن ، باعثةً للفساد ، وذلك مسايرةً للسياسة الدولية التي تتبنّى ذلك ، وتأييداً لسياسة بعض الطغاة من الرعاة ، وحقداً على هذه الفئات التي إن وُجدت لا تفسح المجال لهذه البطائن بالظهور إذ يبدو عوارها، ويظهر نفاقها.

وكتبت هذه البطائن عن الجهاد فلم تُميّز بين أحكام المشركين وأحكام أهل الذمة ، ودججت هذه الأحكام معاً باسم أحكام الكفار ، حيث الجمع أحياناً بالاسم ، إذ يشتركون بالكفر ، وذلك لأن المشركين لا مكان لهم في

ديار الإسلام ، والفرق الضالة تُصنّف ضمن هذه الفئة .
إن الردّ على هذه المغالطات وتبيان الحق لهو من الواجب ، وإذا أصاب
من يفعل ذلك شرّ ، فخرج من الله أن يكون أجره أجر الشهيد ، وعمله
نوع من أنواع الجهاد . ومع ذلك فإننا ندعو لهم ولنا بالصلاح والهداية ،
ونتمنى لهم العودة إلى الصواب ، والتوبة النصوح إلى الله .